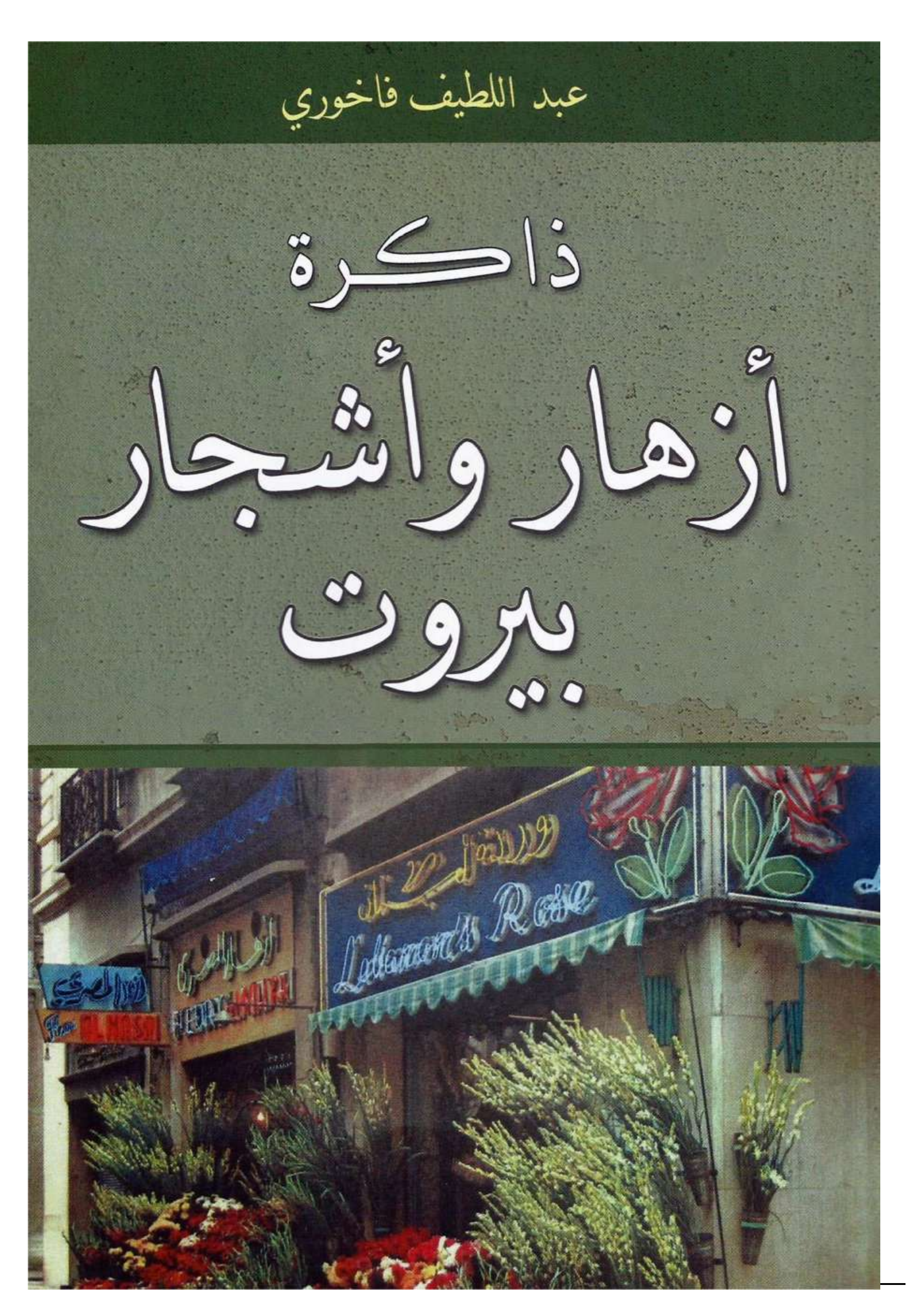


بإذن من المؤلف لجمعية تراث بيروت


مكتبة
جمعية تراث بيروت
Beirut Heritage Society

ذاكرة
أزهار وأشجار بيروت

ISBN 978-9953-509-88-4

ذاكرة
أزهار وأشجار بيروت

عبد اللطيف فاخوري

ذاكرة الناس
الجزائر

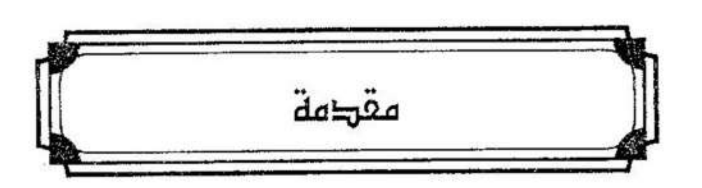
الحداثة
بيروت

اسم المؤلف: عبد اللطيف فاخوري
العنوان: ذاكرة أزهار وأشجار بيروت
تصميم الغلاف: الحداثة
الطبعة: الأولى 2012
• البريد الالكتروني : e-mail: abdullatif-fakhoury@hot mail.com

---

الحداثة
بيروت – لبنان
ص. ب.: 5636 – 14؛ تلفاكس: 555291 – 01

مقدمة



مقدمة

إن للزهور لغةً كلامُها من رَوح وطِيبٍ ورَيحان، وهي خير ما يُعرب عما يجول في القلب والخاطر من رضىً وحب، وخيرُ ما يؤدي واجبَ الشكرِ والإمتنان، من غير أن تنبسَ بشفاهٍ كشفاه الناس، تقولها وهي تتيهُ بأشكالها التي ترتسمُ عليها مظاهرُ الجمالِ والغنج والدلال، وبعطرها الذي يفوح فيملأ الجو طيباً. يكفيها فخراً أنها كانت وما تزال خيرَ رسولٍ بين المحبين، وأنها كانت وما تزال خيرَ ذكرى يحملها الإنسان منذ طفولته، حتى يبلغ سِن الشيخوخة.

وإن لكلِ زهرة لوناً ولغةً. وأمهات الألوان كلها: البياضُ والسواد. فجميع الألوان تميل إلى أحدهما، الزرقة والحمرة والخضرة والصفرة إذا شبعت مالت إلى السواد. والمعتمد أن السوادَ أصلُ البياض وسابقٌ عليه في الوجود، لأن الظلمةَ خُلقت قبل النور والظلمة لونها السواد. والعرب تطلق على الخضرة السوادَ، فيقولون روض كثير السواد الخضرة، لأنه يُرى من بُعد أسودَ. ومنه قولهم سواد العراق أي خضرة أشجاره ونباته.

والنظر في الأسود يجمع البصر، وفي الأخضر يقويه ويزيل الهم والحزن، وفي الأصفر يجلب السرور، والنظر إلى الأحمر يهيج الغلمة. قالت العرب: الحُسن أحمر. قيل لإمرأة حكيمة: أي الألوان أحب إليك؟ قالت: الحُمرة لأنها لا توجد إلا في وجه المستحيي.

وفي الحديث «إلبسوا البيَاض وكفّنوا به موتاكم» وفي التنزيل وصف للباس أهل الجنة ﴿يلبسون ثياباً خُضراً من سُندُسٍ واستَبرق﴾. وكان البياض أحب الألوان إلى نفس الإمام الأوزاعي. ويروى أنه حين اجتمع إلى أبي جعفر المنصور، مَقدَمَه إلى الشام، استأذنه بأن لا يلبس السواد (شعار بني العباس) فلما خرج قال المنصور لحاجبه الربيع: إلحقه فاسأله لمَ كره لبس السواد، ولا تُعلمه أني قلت لك. فسأل الربيع الأوزاعي، فأجابه قائلاً: لأني لم أر مُحرماً أحرم فيه، ولا ميتاً كُفِن فيه، ولا عروساً جليت فيه، فلهذا أكرهه.

وفي خلوص الألوان وبلوغها الغاية تقول العرب: أبيض يقق، وأصفر فاقع، وأخضر ناضر، وأحمر قان، وأسود حالك، وكل ذلك معناه خالص. وقيل اللون من الألفاظ المشتركة، منها أن أهل المدينة يُسَمُون النخلَ كُله الألوان، ومنه في التنزيل ﴿ما قطعتم من لِينه﴾ أي نخلة، لأن أصلها لَونة.

وفي لغة الزهور أن الوردة الحمراء رسالة حب. والصفراء تعبر عن الغيرة. فيما البيضاء تعبر عن الصفاء والنقاء والطهر، فالقرنفلة البيضاء كانت حواء تشمها في الجنة. أما الزهرة الزرقاء فتعني الوفاء. ولعل اختيار اللون الأزرق للوفاء لم يتم عفواً، بل لأن الأزهار الزرقاء نادرة بين الأزهار، ولأن الوفاء قليل. وترمز البنفسجة على صغرها وحيائها إلى العاطفة الحزينة الرقيقة.

وهكذا تُقَدَم الزهور عربوناً للشكر أو الإعتذار أو التهنئة أو حين الشفاء وللترويح عن النفس الحزينة، فيما يُتَخَذ من تنشق روائح الأزهار مفتاحاً لقلوب العذارى، ودعوة للضم.

ولكل زهرة عطرُها، ولكل فلة طِيبُها. إذا بدا الصبح ولاح فَتَح الفل والزنبق، ففاح عطرهما. وإذا تأوه الريح ارتشفت الوردة من الندى، ومال غصن إلى غصن. يُسر نجواه ويبث هواه. فمن عادة

الغصن الإنعطاف، ومن عادة النخل الإستشراف، ومن عادة الهدال الإلتفاف.

عندما قررت البلدية تنفيذ مخطط توسيع الشارع الذي يقع فيه بيت والدي في شارع داود عمون، لم أدرك أن هذا التخطيط سوف يقتطع من أرض العقار حديقة لعبتُ فيها وعفرتُ بترابها وجهي ويدي مرات ومرات. ثم كنت أغسلها من ماء البركة كي أخفي عن والدتي ما علق فيها من التراب.

في تلك الحديقة تسلقت شجرة الليمون. وفيها وقعت عن شجرة الأكي دنيا، وأنا لاهٍ بجس ثمراتها أتبينُ الناضج منها. وبعدما نفذ الإقتطاع واقتلعت الأزهار والأشجار، صرت عندما أعود من المدرسة، أصعدُ مباشرةً إلى البيت، وأقفُ في الشرفة أتأملُ العمال وأقارن بين منافع توسيع الطريق ومضار فقدان الحديقة.

ثم انتقلت من مدرستي الإبتدائية، مدرسة عثمان ذي النورين المقاصدية، إلى مقاصدية أخرى هي ثانوية الحرج. وكان الحنين إلى ملعب الطفولة يشدني يوم العطلة الأسبوعية إلى المرور بقرب مبنى المدرسة الإبتدائية والتسكع حولها، متذكراً الشيخ إبراهيم البنا الذي كان يتولى تنظيف الجامع ودورة المياه وترتيب القباقيب، وكان أيضاً يؤذن ويقيم الصلاة ويؤمُ المُصلين.

وطالما توقفت عند تصوينة بيت الدكتور رضوان أتأمل نوعاً من النبات كانت أغصانه تعلو حوالي المترين، ويتميز بأن زهوره كانت أبواقاً بيضاء طول الواحد منها حوالي الشبر. ثم أزيلت النبتة، وبقيت صورتها في ذاكرتي خمسين عاماً، إلى أن عثرت على مثيلتها في بستان لآل جمال الدين في محلة أبو الأسود قرب مدينة صور. وحاولت أخذ فسيلة منها لإنباتها فلم أوفق.

ولاحقتني البلدية ومخططاتها حتى محلة دار المريسة، عندما أرادت تنفيذ وصلة كورنيس المنارة من مقهى علوان حتى جامع عبد الله بيهم. فاقتطعت قطعة الأرض الباقية حول بناء بيت جدي علي الحوت، فاقتلعت شجرة البلح الزغلولي، وشجرة القراسية وما حولهما.

وكنت كلما تذكرت أشجار حداثتي ونباتات طفولتي. ولا سيما نبتةٌ تشبه الشماسي الخضراء، عرفت فيما بعد أن تكثيرها يتم عن طريق قطع واحدة منها وزرعها مُنكسة في التربة، وكذلك نبتةٌ أوراقها ملونة تتدلى من أغصانها أزهارٌ رقيقة حمراء كانت والدتي تسميها جميل بك؟

كنت أستعيد بأسىً مشاهدَ الفؤوس تهوي على شجرات الليمون والأكي دنيا وتُسقطُ النخلة والقراسية، وتمثلت فصول مسرحية كتبها الأديب الفرنسي أوجين بريو (١٨٥٨ ـ ١٩٣٢م) بعنوان «الأميركيون في بيتنا» **Les Américains chez nous** تروي خبر عائلة تملك قصراً قديماً. ربما لم تكن له قيمة إلا في قدمه، وما يبث من شحنات عاطفية لساكنيه وسط أرض فيها أشجار ضخمة عجوز، زرعها الآباء والأجداد. وكان من أفراد الأسرة فتاة رقيقة المشاعر. عرض أحد الأميركان ـ وهم كما كتب الأديب عمر فاخوري سنة ١٩٢٠ «رجال عمل ومصلحة ومال: العواطف لا تقف في سبيلهم إلى هذه الغايات. تذكارات الماضي لا تعوقهم عن تشييد صرح المستقبل. . . «عرض هذا الأميركاني على العائلة أن يستثمر الأرض مقابل فائدة مالية كبيرة، ولكنه مضطر لقطع الأشجار، تذكارات الماضي الجميل. واحتارت الأسرة بين العاطفة والعقل، بين الذكريات الجميلة والثروة الجليلة، فاختارت المنفعة. ولكن يوم بدأ العمال بقطع الأشجار وقلع النباتات، كانت كل ضربة فأس سهماً دامياً في قلوب أفراد الأسرة».

واستعدتُ هذا المشهد من جديد عندما رأيت الجرارات والشاحنات، بعدما وضعت الحرب أوزارها، تنقل أطلال بيروت القديمة وبقايا بيوتها وأشجارها، وتنثرها في مكب عند البحر، فأنشدت قول المجنون:

أمرُّ على الديار ديار ليلى

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حُبُّ الديارُ شغفنَ قلبي

ولكن حبُّ من سكن الديارا

ونويت في نفسي أن أكتب حكاية البيوت في بيروت فكان مني كتاب «منزول بيروت». وأن أكتب بعده عن أهل بيروت فكان كتاب «البيارتة حكايات أمثالهم ووقائع أيامهم».

وأن أكتب ما ضَمّته ذاكرة أشجار بيروت وأزهارها بلسان تلك الأزهار والأشجار، فكان هذا الكتاب.

من ثلاثيات البيارتة قولهم: ثلاث يُذهبن الحزن، الماءُ والخضرةُ والشكلُ الحسن، وقد نظمه مفتيهم الشيخ عبد اللطيف فتح الله سنة ١٨٠٠م بقوله:

عِذَارهُ الآس، وماء الحيا

وشكله الحالي، يذهبن الحَزَن

يا طيب أفراحي، ففي وجهه

ماء وخضرة، وشكل حسن

والخضرة مرتبطة بالماء. فبعد ما يعري الخريف الأشجار من ثيابها، وتذبل الورود وتنحني الأزهار، يتكاثف غيم الشتاء، فيطبل

الرعد ويصفر الريح ويزمجر، يُقبل السحاب ليفرغ جعبته مكللأ الربى تلبية للنداء:

كللي يا سحبُ تيجانَ الرُبى بالحلي
واجعلي سوارك منعطفَ الجدولِ

وتمتصُ الجذور العطشى حاجتها، ويردُ الربيع إلى الشجر لباسَه ولسانُ الحال يقول ما قاله البحتري الشاعر:

أتاكَ الربيع الطلقُ يختال ضاحكاً
من الحسنِ حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غَسقِ الدجى
أوائل وردٍ كن بالأمس نُوما
يفتقها بردُ الندى فكأنه
يبثُ حديثاً كان قبلُ مكتما
فمن شجر رد الربيعُ لباسه
عليه كما نشرت وشياً مُنَمنما

وارتبط الإخضرار بالأسماء التي عرفت بها مناطق بيروت القديمة خارج السور.

فقد وصفت تلك المحلات بالمزارع. فقيل مزرعة الأشرفية، ومزرعة المصيطبة وكذلك مزرعة رأس بيروت والقنطاري والصيفي والقيراط ورأس النبع. وتفيد الوثائق الشرعية الموجودة منذ سنة ١٨٤٣م إن هذه المناطق كانت مقسمة إلى بساتين وكروم وجنينات وجلول وإلى عَودات مُفرزة من البساتين.

من البساتين ما يعود إلى آل الغول وقيقانو والناطور ويارد والتيان

وقباني والحلواني والشلفون و التويني والداعوق والطيارة وعبد اللطيف فتح الله (في الغلغول) والبلعة (في محلة الدحداح) وكسبية (في رأس النبع) وغيرها.

ومن الكروم ما هو منسوب إلى آل سنو والداعوق والغزاوي والقحف والعانوتي وسرفيم وغيرهم.

ومن الجنينات ما كان لبني الحشاش (قرب زاوية الأوزاعي) وجنينة أبي صالح طباره (لصيق القلعة) حيث جرت معركة مع القراصنة، تمكنت خلالها سعود بنت صالح طباره من انتزاع السيف من القرصان. وجنينة المطران (الصيفي) وجنينة بني إدريس وجنينة الحشاش وجنينية عبد اللطيف فتح الله. وفي محلة رأس النبع الشرقي حيّ عرف باسم حي الجنينات كان يحتوي على أشجار توت وبري وليمون وتين شتوي، وكان يزرع خضاراً على طريقة الزراعة المعروفة بشركة المساقاة. ومن العودات ما هو لآل محيو والدهان وداغر وغزال والخوري يوسف الحتي وغيرهم. ومن أشهر الجلول جلول الست ضيا التي اقيمت بجوارها القشلة الهمايونية وقد أصبحت اليوم السراية الكبيرة.

وقد حوت البساتين والجنائن مختلف أنواع الفاكهة كالليمون بزهره الأبيض الفواح، والأكي دنيا والرمان. إلى أنواع الرياحين حول البرك والنوافير، كالياسمين والفتنة والعويشقة والفل والزعفران والنرجس والمنثور والبنفسج وشقائق النعمان والورد.

أحب البيارتة أشجارهم وأزهارهم، وأطلقوا أسماءها على بعض أحيائهم وعلى بناتهم، فأسهمت تلك الأشجار في تخطيط المدينة وتحديد أحيائها السكنية. فاشتهر كل حي بشجرة معينة. وهكذا نشأت أحياء: الجميزة، الزيتونة، والخروبة، وجب النخل، والتينة،

والصنوبرة، والسنطية، نسبة إلى شجر السنط، ولا يزال بعض هذه التسميات جارياً حتى اليوم.

ومن الطريف أن نشير إلى أن المحلة التي كانت مجاورة للكنائس وسط المدينة القديمة، قرب مجلس النواب الحالي، كانت تعرف بمحلة الدراقن. وكانت فيها دور آل الصايغ والصيقلي ومنسى والخوري نقولا باصيلا. كما أخذت عائلاتٌ شهرتها من أحد الأزهار كعائلات: قرنفل ووردة والزنبقي وزهرة.

لا يُنكر ارتباط الأشجار، ولا سيما المعمرة والمثمرة منها، بذاكرة المكان.

ولكل شجرة ذكرى. وفي كل شجرة تأريخ.

فكم من أديب كتب عن شجرة أزهرت يوم مولده.

وكم طالبٍ تلقن الأحرف الأولى من الأبجدية في ظلال شجرة بيته أو مدرسته.

وكم عاشقٍ حفر على جذع شجرة إسم حبيبته، ورسم بجانبه قلباً يخترقه سهم كيوبيد.

وكم حبلٍ مُد بين شجرتين رُكبت عليه أرجوحة تهادت عليها الصبيات يُرددن: يا ولاد محارم يويو.

يتناقل الناس حكايات وحوادث مرتبطة بأشجار معينة. وكأنما الشجرة قد غدت جزءاً من ذاكرة المكان، وبنداً من التاريخ الإجتماعي للسكان. ولم يعد من الجائز قلعها وغرس نباتات غريبة مستوردة مكانها.

إزرع ولا تقطع، زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون، الإنسان مثل الشجرة يُكسى ويَعرَى، عبارات حفظناها صغاراً، ووعينا أهميتها كباراً، وأدركنا حكمتها عندما شاهدنا حاملات الأنقاض تنقل بقايا أبنية

بيروت وأشجارها وترميها فيما أطلق عليه مكب النورماندي.

تعلمنا أن النبات يمنحنا الأوكسيجين والكلوروفيل، وينقي الهواء. فأهملناه ولجأنا إلى عوادم السيارات، نستنشق منها السموم الملوثة للهواء. افتقدنا مع حديقة النبات المزروع حول البيت الغذاء والدواء. وغاب بإهمالنا له، الحبور عن نفوسنا والبهجة عن قلوبنا، يوم كنا نأنس لأصُص الفل والورد المصفوفة حول البركة والفوارة، ونساهر الليل ونعتقد أن القمر خلق للسمر والسهر.

كنا نتأمل أحوال النبات ونتفكر فيها ونعتبرها، فما وجدنا شيئاً منها يتجاوز أشكال نوعه، وما رأينا قط ورقة زيتون خرجت من شجرة ليمون، ولا ثمرة مشمش خرجت من شجرة تين، مع أنه كله خاضع للأركان الأربعة الماء والهواء والتراب والنار. فهو يُسقى بماء واحد، وينبت في تربة واحدة، ويتنسم هواء واحداً، وتنضجه حرارة شمس واحدة.

قال الشاعر أحمد البربير:

زارت بــنــهــد مــثــلِ جــوهــرة

تُــبــدي نــبــاتــاً ظــن مــرجــانــا

فــهــل ســمــعــتــم بــانــةً حــمــلــت

فــي الــدهــر عــنــابــاً ورمــانــا

كما أدركنا أن النبات رغم اختلاف ألوانه وروائحه ومذاقه، كل نوع منه غذاء ودواء، كما يذكر في كتب الطب، وقلما خلا دواء من مادة نباتية. وعرفنا الفرق بين الفلاحة، وهي معرفة أحوال النبات، والزراعة: وهي العمل فيه. وقد يجتمعان في شخص واحد، وقد ينفرد كل واحد منهما في شخص.

ذكر إخوان الصفا في رسائلهم «أنه ورد في الأخبار المتواترة أن مع كل ورقة وثمرة وحبة تخرجها الأرض من النبات ملكاً موكلاً يربيها وينشئها ويحفظها من الآفات العارضة لها إلى أن تتم وتكمل وتبلغ أقصر مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها. . .». ومن يتأمل النباتات أزهاراً كانت أم أشجاراً، يرى أن الأوراق جعلت زينة لها، ودثاراً لثمارها، ووقاية لحبوبها وزهرها، من الحر والبرد والرياح والعواصف. وجعلت غذاء ودواء للإنسان والحيوان. وهكذا حكم ثمارها وبذورها ولحائها وعروقها وأصولها وقضبانها ولبها.

قسم العلماء الموجودات إلى أربعة أجناس: معادن ونبات وحيوان وإنسان، وكان تحت كل جنس أنواع كثيرة. فأنواع النبات متفاوتة، منها ما هو في أدون الرتبة مما يلي رتبة الحيوان كخضراء الدمن، قال الحريري:

ما أنت أول سار غره قمر

ورائد أعجبته خضرة الدِمَنِ

قيل إن خضراء الدِمَن هي النبات الذي يروق للعين، ويعجب النفس لحسنه، لكنه نبت في المزابل. والدمنة هي المزبلة. وفي الحديث «إياكم وخضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» وذلك لأن الشيء يعود إلى أصله، إن طيباً فطيباً، وإن خبيثاً فخبيثاً.

ومنها ما هو في أشرف الرتبة مما يلي الحيوان كشجرِ النخل، الذي أشخاص الفحولة فيه، مباينة لأشخاص الإناث، ولأشخاص فحولته لقاح في إناثها كما يكون ذلك في الحيوان. والنخل إذا قطعت رؤوسها جفت وبطل نموها ونشوؤها وماتت.

* * *

ودخلت أنواع النباتات والثمار والزهور في الحياة الإجتماعية، فاستعار الناس أمثالاً وكنايات وتشبيهات من خواص بعض النباتات ونواميسها وأشكالها وألوانها وصفاتها ومنافعها.

فقد شبهوا الوجنات بالزهور، والعِذَار بالآس، قال إبراهيم السفرجلاني:

كفوا الملام ولا تعيبوا زهرة
في وجنتيه تلوح كالتطريز
فالحسن لما خطَ آس عذاره
ألقى عليه قراضة الإبريز

واستعان الشبان والشيوخ بالعصي ولكل منهم غاية فيها، كما جاء في لوحة علقها رجل من آل النقاش في محل اتخذه في ساحة السور (عصور) لبيع أنواع العصي:

أهدت الأغصان للأيدي عصا
برشيقِ القدِ أضحت عابثه
وإلى الشبان أمست زينةً
وغدت للشيخ رِجلاً ثالثه

وشبهوا فعل الخير والمكارم بالزرع الجميل، فقال بعضهم:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت زارعاً
ندمت على التفريط في زمن الزرعِ

وقال آخر:

إذا زرعت جميلاً فاسقه غَدَقاً
من المكارم كي ينمو لكَ الثمرُ

ولا تشنه بمنٍ منك تتلفهُ

فعادة المن أن يُؤذَى به الشجرُ

وللشاعر أحمد البربير:

يا زارع الأرض وهو يرجو

من زرعها الرَيعَ والنماء

إزرع جميلاً بأرض مثلي

تحصد به الأجر والثناء

ومما يتعلق بالزراعة موال منسوب للشيخ عبد الغني النابلسي وهو قوله:

باللَه عليكم حبائب بالجفا من شار

ما تعلمون أن المحبة في الحشا منشار

في سفح قاسيون والربوة مع المنشار

لؤلؤ بذرنا مدامع يا ترى من شار؟

يشبه الشاعر في الشطر الأخير دموعه باللؤلؤ، ويشبه اللؤلؤ بالبذر الذي يلقى في الأرض للإستنبات. وقوله من شار مأخوذ من القول «شريت العسل، إذا أخرجته بالمشوار من خلياته وجمعته. وذلك أن المولدين يسمون شق الفلاحة من أوله إلى آخره: شورى، ويقولون شار الأرض إذا جعل فيها تلك الشور. وقد أشرنا في كتابنا «رأس بيروت ومزرعة جرن الدب» إلى كثرة ورود لفظتي شورى وشورة، في الحدود الفاصلة بين الأراضي ولا سيما المزروعة بأشجار التوت.

وقد هجت شاعرة عربية قومها وشبهتهم بشجرات ليس لها ظل ولا ثمر فقالت:

إذا لـم يـكـن فـيـكـن ظـل ولا جـنَـى

فَـبَـاعـدكُـن الـلَّـه مـن شـجـراتِ

ومن ذلك قول المثل العربي الذي لا نزال نردده: بسقيك بالوعد يا كمون، نظمه الشاعر:

وبِــتُ أُشــبــه كــمــونــاً بــمــزرعــة

إن فـاتـه الـغـيـث أغـنـتـه الـمـواعـيـدُ

فإن الكمون إذا عطش ورآه أصحاب الفلاحة، وعدوه بالسقي، فيروى بالوعد وتظهر عليه النضرة.

أما الشاعر أحمد بهجت بركات فقد خاطب حبيبته بشطر بيت من قصيدة «النافذة» قال فيه:

يـــا أجـــمـــل الأزهـــار قـــاطـــبـــة

* * *

وألغزوا في الأزهار وفي بعض الثمار فقال الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي ملغزاً في سفرجل:

مـا أسـمٌ إذا لـحـق الـتـحـريـف أكـثـره

وحـاول الـفـكـر مـنـه كـشـف مـحـجـوب

يــلــقــى بــآخــره رجــلاً بــغــيــر يــد

وفــي مــقــدمــه نــصــف إبــن يــعــقــوب

(أراد باليد الراء. وبنصف إبن يعقوب يوسف: سف).

وفي سنة ١٨٨٨م ألغز الشيخ محمد الكستي (قاضي القضاة فيما بعد) بالأقحوان:

وأسأل عن شيء تنظم شكله

وفي مَورد الإبداع شبه بالشغر؟

وفي قلبه المكشوف لون متيم

أحاط به سلك من الأنجم الزهر

تراه سداسي الحروف به بدا

وتحريفه للنصب حرف بلا نكر

وآخره حرف وتصحيفه غدا

بمجمله شمساً على فلك الدهر

على أن هذا الحرف للنفس موضع

وتلقاه ذا روح ويسبح في البحر

تكرم بحل المشكلات التي به

فتكسب الحمد الجزيل مع الشكر

وقد حَلَّهُ كل من الياس الحنكياتي ونقولا فياض فقال هذا الأخير:

ألا يا ذا الحصافة والمعاني

ومن شهدت له أولو البيان

لقد ألغزت في اسمٍ ضاع نشراً

بأكناف الأجارح والجنان

وفي روض الصفا لما تبدى

بدا يفتر ثغر الأقحوان

يذكر أن الأقحوان نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء، وأوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان. ومنه قول الشاعر:

مـا زلـت مـن حـيـرة ومـن دهـش

أقـول لـمـا رأيـت مـبـتـسـمـك

بـالـلَـه يـا أقـحـوان مـبـسـمـه

عـلـى قـضـيـب الأراك مـن نـظـمـك؟

* * *

كما دخلت النباتات والأزهار في أمثال البيارتة، منها قولهم:

ـ ما لقوا بالورد عيب قالوا يا أحمر الخدَين.

ـ مثل السفرجلة كل عضة بغصة.

ـ الطول للنخل والتخن للجميز.

ـ ما في شجرة وصلت لعند خالقها.

ـ بزرة زيتون بتسند خابية.

ـ إبن آدم مثل الشجرة بينكسى وبيعرى.

ـ كبر القرع وادور ونسي زمانه الأول.

ـ كبرت الباتنجانة ودندلت أجراسها ونسيت قفة الزبالة يلي على رأسها.

ـ بأيام الباتنجانة ما بتنام جوعانة إلا كل كسلانة.

ـ طلع طلوع القرع والليف ونزل نزول الباتنجان. وقد سبكه المفتي الشيخ أحمد الأغر فقال:

وكـم رأيـنـا صـاعـداً أغـره الـهـوى

صـعـود أصـول الـلـيـف يـا صـاح والـقـرع

فـمـا طـاب حـتـى قـد هـوى وهـو نـازل

نـزولاً كـبـاذنـجـانـنـا عـادم الـنـفـع

فلا تطلبن الشيء في غير وقته

تُعاقب بالحرمان قد جاء في الشرع(*)

ولا تعجلن بالحوز في الرأي وانصبن

موازين قسط الفكر بالخفض والرفع

تكن حازماً في راحة لا ينالها

سوى قابل للنصح قم فالق للسمع

وإلا تذب في الهم والغم يا فتى

كفعل الحيا بالثلج والنار بالشمع

ــ ناموسة هدت على جميزة، قالت لها مَكنِي شروشك بدي طير. قالت لها: ما حسيت فيك لما غَطيت.

ــ عالقرمية بتنبت الشجرية.

ــ يلي بدو مرتو تعيش يشعل لها ورق عريش ويلي بدو مرتو تموت يشعل لها ورق توت.

ــ الآباء يأكلون الحصوم والأبناء يضرسون.

ــ حامض على سنانك.

ــ وجو أصفر مثل الليمونة.

ــ لما بتصير ورقة التين قد إجر البطة نام ولا تتغطى.

ــ الشجرة بتقول شيل أختي عني، وخود حملها مني.

ــ منركض منركض والعشا خبيزة.

(*) أراد القاعدة الشرعية: من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ـ سلق أو يبرق؟ قال الدور على المستطعم.

ـ العز للرز والبرغل شنق حالو.

ـ بتدبل الوردة وريحتها فيها.

ـ ما رمانه؟ قلوب مليانة.

ـ قلب اللوز يا ترمس.

ـ مثل الحمبلاس الشامي كلما كبر كلما حلي.

ـ على حجة الورد بيشرب العليق.

ـ بزرة الخروب طلبت من ربها بيت لوحدها.

ـ مثل الخروب درهم عسل على قنطار خشب.

ـ كانت القدرة ناقصة باتنجانة، صارت طافحة ومليانة.

ـ أرخص من الفجل، التراب والزبل.

ـ بزرعك بين البقدونس بلاقيك بين الكزبرة، وقد سبكه المفتي الشيخ أحمد الأغر فقال:

كم ذا زرعتنك يا الذي
الأفكار فيكَ محيَره
ما بين بقدونس
ألقاكَ بين الكزبره

ـ آه من هالزمان خلط القمح بالزؤان، وقد سبكه المفتي الأغر فقال:

يا رعى اللّه زمانا كنت فيه في أمان
كنت لا أملك فيه غيرَ قلبي ولساني

كـان لـي ذاك مـشـيـراً   عـنـه هـذا تـرجـمـانـي
كـان لي جـمـعٌ يـفـرق   بـيـن قـمـحـي وزوانـي

ـ أيستقيم العود والظل أعوج.

قال الشيخ الأغر:

أيُـرجـى صـلاحُ الـفـرع والأصـلُ طـالـحٌ
ولا يـسـتـقـيـمُ الـظـلُ والـعـودُ أعـوجُ

ـ هدية المقرف ليمونة حامضة.

ـ بفية الجميز ما بينبت حشيش وإن نبت ما بيعيش.

أشير أخيراً إلى أن الطبيب داود عمر الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨هـ ـ ١٥٩٩م أورد في كتابه «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب» ذكر النبات المسمى «دُرُونج» **Doronicum** وقال عنه «إنه نبتٌ مشهور بجبال الشام، خصوصاً بيروت» وذكر الكثير من منافعه. مع العلم بأن النبات المذكور لا يزال حتى اليوم يستعمل لدى أطباء الأعشاب لعلاج بعض الأمراض. كما أن الأنطاكي عندما ذكر الجميز قال: «رأيت في بيروت أشجاراً قليلة منه».

كما اطلعنا على وثيقة مؤرخة في غرة شوال سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م وفيها وقف الشيخ علي محمد القصار على زاويته، حديقتين مزروعتين بأغراس من التوت، واحدة بجانب سور بيروت لصيق حمام الأوزاعي (السوق الطويلة) والثانية داخل المدينة.

وقد وجدنا أن الشيخ عبد الهادي قرنفل الذي كان قاضياً لبيروت بين سنتي ١٢١١ ـ ١٢٢٤هـ/ ١٧٩٦ ـ ١٨٠٩م، وقف الأشجار الموجودة في قطعتي أرض كان يملكهما في حي الباشورة، لمصلحة الجامع العمري الكبير.

وأطلعنا على وثيقة مؤرخة في ٤ محرم ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م تثبت وجود مشتل يملكه شاهين الدهان كائن في بستان العشاشي في مزرعة نهر بيروت.

ولعل شهرة شاتيلا تؤكد أن أصل هذه الأسرة البيروتية من المزارعين. فلفظة شاتيلا سريانية الأصل بلفظ «شتلا» ومعناه من يغرس الشتل أي النبات الصغير في الأرض، واشتق منه فعل شَتَلَ. ويسمى موضع الشتول المعدة للزراعة «بالمشتل».

وقد كان في بيروت القديمة سوقٌ عُرف «بسوق الأزهار» قلت فيه:

رِزق الـلَـه عـاسـوق الأزهـار
مـنـوَر مـورَد لـيـل نـهـار
بـالـزنـبـق والـورد والـجـلـنـار

* * *

يقول الفلاسفة إن العالم يسير على قدمين: القديم والجديد إشارة إلى ضرورتهما معاً. فقد عرف التاريخ شعوباً عاشت على قديمها فاضمحلت. وعرف شعوباً تهافتت على الجديد فاختلت وتفككت.

فإذا لم يعد ممكناً زرعُ شتلات من الجميز والتوت والتين والزيتون في ساحات بيروت ودروبها؟

ألا يفكر المجلس البلدي بانشاء حديقة للنباتات تضمُ نماذجَ من أشجارِ بيروت ولبنان وأزهارهما؟

وفي الختام كلمةٌ لا بدَ منها... فربَ قارىءٍ يقول: ما دام

الكاتبُ تصدَى لذاكرة الأشجار والأزهار في بيروت واستَنطقَها حيث تيسَر له، فما بالُه غفل أو تغافلَ عن شجرةِ الأرز؟.. هذا حقٌ، ولكن الحديث عن شجرة الأرز له موضع غير هذا الموضع. ولو استُذكرت شجرةُ الأرز، لتذكَرت تاريخ لبنان كلّه، منذ نشوئه وحتى اليوم، ولملات ذكرياتها مئات الأسفار، ولكن الحديث في هذا الكتاب إنما كان خاصًا بأشجار بيروت وأزهارها، ولم يكن عاماً شاملاً كل لبنان... وشجرة الأرز هي رمز لبنان وعلامة شموخه وخلوده.

ولنَترك أخيراً أزهار بيروت وأشجارها تحكي حكاياتها وتبثُ نجواها وذكرياتها.

بيروت في ٢٤/٤/٢٠١١ عبد اللطيف فاخوري

الحطاب والشجرة والأرضة

الحطاب والشجرة والأرضة

الشجرة: أنت أيتها الحشرة الصغيرة لا فائدة منك ولا منفعة.

الأرضة: وأنت أيتها العملاقة الباسقة، الثخينة الجذوع، الثابتة الراسخة، الناشرة فروعها في الجهات الأربع. تتباهين بخضرتك الدائمة وظلالك الوارفة، وتتغافلين عن قوتي، وعن مقدرتي على الإنتصار عليك؟ وقد سمعت ولا شك عن الصغار عندما ينتصرون.

الشجرة: هلا أخبرتني عن سلاحك؟

الأرضة: ها أنا ذا أنقب ثقباً في جذعك ثم أنخره وأوسعه، وأضع فيه مع بيوضي جراثيم تتكاثر باستمرار وتلتهم ما تصادفه.

الشجرة: مرت علي أعاصير ورياح أقوى منك بكثير، ولم تنل من قوتي.

الأرضة: ها أنا أرى فروعك أخذت ترتعد وأوراقك تتهيأ للسقوط.

الشجرة: إنها رجفة الخريف.

الأرضة: يبدو لي أن جذعك المرن غدا خشناً صلباً، وأن جذورك توقفت عن التسلل في الأرض باحثة عن قطرة ماء. وقد آن لليل أن يُرخي سدوله، بعد أن أسرعت عساكره بالهجوم على الجفون، وغداً باكراً موعدك مع الحطاب.

الشجرة: أنا والحطاب حليفان. فأنا آية من آيات الله ونعمة من نعمه التي لا تحصى، وقد ذكرت عدة مرات في التنزيل وبويع الرسول تحتي.

الأرضة: ها قد أقبل الحطاب ومعه فصل الخطاب.

الحطاب: استمحيك عذراً يا شجرة الخير، إن قطعت فأسي أغصانك اليابسة، فإن يد الفأس قطعة منك. وفي قطعها فائدة لبقية فروعك، ومنفعة لعائلتي، تنير ليلينا وتدفىء بردنا.

الشجرة: إذن صح ما قيل بأن الوفاء قليل. فقد أكلتم ثمري وتفيأتم ظلي.

الحطاب: أنا لا أعاقبك ولست بآخذ ثأري منك، ولكن ما أقوم به هو لمنفعتك، حتى ولو آلمك قليلاً، فأنا بحاجة إليك، وأنت بحاجة إلي.

الشجرة: لقد استضفتك وإخوانك سنين عدداً. بششت في وجوهكم، وقدمت لكم أحسن ما عندي من ثمر، ولم أظهر لكم يوماً الملل والسآمة، ولا سيما عندما تطيلون الجلوس عندي.

الحطاب: أن ما تشكين منه الآن سوف ينقلب شكراً لي عندما تنمو فروعك الجديدة، وتتفتح براعمك، وترسل أزاهرك دعوة إلى النحل لجني الرحيق. ودوري مقدر ومكتوب.

الشجرة: دعني أفرج عن نفسي، فأذكر بأنني أهديتكم سفناً جبتم بها الآفاق ونشرتم الحَرف في العالم.

وقدمت لكم من جذوعي أعمدة لمعابدكم، وسقوفاً لبيوتكم، تتقون بها حر الشمس وبرد الشتاء.

وسمحت لعشاقكم بأن يحفروا على جذعي قلوباً اخترقتها سهام كيوبيد، بعد أن خطوا عليها أسماءهم.

لقد جعلتم من أختي الأرزة رمزاً لكم.

وصنعتم من أختي التوتة حريراً للباسكم.

وعصرتم من أختي الزيتونة نوراً لظلامكم.

ولم تبخل أختي النخلة، عمَتكم فَضلةُ طينةِ أبيكم آدم، بالرطب الجني على مريم بنت عمران وعلى إبنها كلمة الله.

واستعرتم غصن الزيتون للسلام.

وكللتم انتصاراتكم بغصن غار.

أما أختي التفاحة فقد أحسنت بإخراجكم من الجنة.

وما أرى إلا أنها كانت على حق.

وما أراك أيها الحطاب إلا من الظالمين.

فافعل ما جئت من أجله.

وصح ما أخبرتني به الأرضة يوماً عن الصغار عندما ينتصرون؟

* * *

حوار بين
بزرة قمح وذرة تراب

حوار بين
بزرة قمح وذرة تراب

نظم الشيخ أحمد البربير مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء.
وكتب الشيخ مصطفى الغلاييني فكاهة بين الطربوش والقلبق.
فأنشأنا هذه المقامة بين بزرة قمح تحاور ذرةَ تراب.

البزرة: أنا أقوى منكِ، فإنني أشق آلاف الأطنان من التراب وسط الظلمات وأَخرج بساق دقيقة ضعيفة رافعة رأسي من الأعماق.

الذرة: إلى أين؟

البزرة: إلى السطح، إلى النور، إلى العلى، إلى المنتهى.

الذرة: أنت قوية لديك الطاقة وعدم الضعف ولكنك لست شجاعة.

البزرة: لا يلزم من وجود القوة وجود الشجاعة، فكم من قوي جبان، وكم من ضعيف شجاع. وفي ذلك حكمة لا تدركينها.

الذرة: وما هي هذه الحكمة؟

البزرة: إذا اجتمعت القوة والشجاعة في إنسان أو في شيء، كان ذلك سبباً لعتوه واستكباره. وأنا كما ترين، لست عاتية ولا مستكبرة، بل قانطة انتظر رحمة الله؟

الذرة: وهذا دليل آخر على ضعفك؟

البزرة: من صفاتي الهشاشة، أفرح بقطرة ماء، أستبشر بها وأرتاح إليها. أهش لها وأبش.

الذرة: وتزعمين أنك لست متكبرة؟

البزرة: من صفاتي الإغضاء والإعراض والتغافل عن جزاء من أساء إلي، حتى كأنه لم يعلم بإساءته، وها أنا ذا أعرض عن إساءتك وكبسك على أنفاسي أنت وأقرانك وأقربائك من أكوام التراب وحبات الرمل.

ولسان حالي قول سمعته والدتي على لسان شاعر:

ولما تعامى الدهر وهو أبو الورى
عن الرشد في أنحائه ومقاصده
تعاميت حتى ظن أني أخو العمى
ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

الذرة: أليس هذا القول من أنواع الإستكبار؟

البزرة: كلا. فمن صفاتي التواضع. ذلك أن قوتي بحاجة إلى قطرة ماء كي أتمكن من إزاحتك أنت وأعوانك وأرفعكن عن كاهلي وأشق طريقي القدري.

الذرة: أنت تتكلمين... تتكلمين.

البزرة: وأنتِ تتصاممين.. تتصاممين.

الذرة: في مثل حالينا يُستعذب الصمم.

البزرة: أنا وأنت لسنا عدوتين بل خلِتين. فأنت وإخوتك تحفظنني من حشرة واحدة جائعة. وكما أخبرتني جدتي:

وليس كثيراً ألفُ خِلٍ وصاحبٍ

وإن عَدُواً واحداً لكثير

الذرة: نحن نسهل لك سبل البقاء قدر ما نستطيع.

البزرة: وأنا ضيفتكم، حتى يحين الحين.

الذرة: ونحن نكرم الضيف، نحفظه ونصونه عن الأذى، ونمنع عنه الضرر، وها نحن نسهل وصول قطرات من الماء إليك.

البزرة: لقد كنت وأقرانك نُدماني، وأنا نادمة على ما قد يكون فرط مني أيام مجالستكن وها أنا ذا أتندم على فراقكن ولكن الساعة أتت.

الذرة: أنأمل يوماً بعودتك بعد خروجك؟

البزرة: سأخرج لأنمو وأتطاول ثم أنثر بناتي حُبَيبات يأكلها الإنسان فينمو ويكبر ويلد ويستولد. وقد أعود. فإنني أحمل صفات البناء كلها كما تحمل بزرة الإنسان صفات الإنسان كلها فأنا وهو حليفان. وما يجري عليه يجري علي.

الذرة: ولكن ستعودين مُكرهة. لأن الذي سوف يأكل وينمو ويكبر، سيأتي عليه يوم يشيخ فيه ويهرم ويعود إلى حضني كما حضنتك، فهو من ترابي.

البزرة: ومع ذلك فإن قوتي تكمن فيما أحمله في أحشائي، وهي قوة ثابتة صابرة مستكنة، تنتقل إلى بناتي وحفيداتي.

الذرة: تطعمين الإنسان ليكبر ويسود ويتجبر ويظلم ويسفك الدماء ويقتل أخاه...

البزرة: أنا أطعمه المحبة والحفاظ على النوع، وأنت زرعت فيه القساوة والغلظة.

الذرة: ومع ذلك فإن قدره أن يعود إلي وأن تتناثر بقاياه إلى جانبك في بطني.

البزرة: لقد منحته كل شيء حسن ولكن الطبع غلب التطبع، ذلك أن طبع الأذى غالب عليه.

الذرة: وأنت مع قوتك الناعمة عاجزة بمفردك، وبحاجة إلى قطرة ماء.

البزرة: كِلتانا عاجزتان، فنحن بحاجة إلى الماء والهواء. فالماء يلقحني فأهتز وأرتجف، وأرتعش وأفرح، فأتململ وأتمطى، وأزيحك وأخلخلك، وأرسل جذوري لتتسلل وتمتص ما تجده بين ضلوعك من قطرات.

الذرة: متى نأمل عودتك؟

البزرة: عندما أهرم وأشيخ، أخلع أوراقي وأمتنع عن الشرب، وأترك بذوري تتساقط عليك لتعيد سيرتها الأولى.

أقول... يقال

أقول... يقال

أقــول لــلآس وهــو ســيــد الــجُــلاس
أأنــتَ أولُ غـرسٍ نـوحٍ؟ فـقـال: يـقـال
فـقـلـت لـلـورد وهـو غـضٌ نـضـيـرٌ
أأنـت مـلـك الـريـاحـيـن؟ فقال: يقال
أقــول لــلــزنــبــق وهــو فــارعٌ مــديــدٌ
أأنـت نـاشِـرُ الـعـطـر؟ فـقـال: يـقـال
فـقـلـت لـلـيـاسـمـيـن وهـو مـطـبـق
أأنـت إكـلـيـل الـعـروس؟ فـقـال: يقال
أقـول لـلـنـرجـس وهـو عـلـى سـاق
أأنت الـدواء الـمـشـمـوم؟ فـقـال: يـقـال
فـقـلـت لـلـبـنـفـسـج وهـو بـاكٍ حـزيـن
أأنـت سـيـد الأدهـان؟ فـقـال: يـقـال
أقـول لـلـقـرنـفـل وهـو عـون الـصـائـم
أأنـت سـيـد الأفـاويـة؟ فـقـال: يـقـال
فقلت للمنثور وقد تناثر في الحقول
أأنـت ضِـدٌ الـمـضـمـوم؟ فـقـال: يـقـال

وقالت إجَاصة

وقالت إجّاصة

وما أدراكم ما الإجاص؟

يسميني البعض إجاصة.

ويقال عني في سورية ولبنان وتلمسان: نجاصة.

ويدعوني النحويون: كُمَثرى.

ويستعيرون وصفي ليقولوا: كمثري الشكل.

وأنا أتباهى بذلك، فكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

أتزاحَمُ أنا والتفاح على إصلاح المعدة والأمعاء ولا سيما إذا أُكلتُ على الريق. وأُقوي الشهيَة، وأذهب العطش، وأُعدل الدَمَ، وأُصلحُ الكبدَ والكلى.

زُرِعَت شجرات مني في مزرعة رأس بيروت ومزرعة المصيطبة.

شبهني شاعر بالنهد والسرة فأحسن قولاً:

حُبّاً بكُمثُرايَةٍ لونُها
لونُ محبٍ زائدِ الصُفره
تشبه نهداً لثيبٍ قعدت
وهي لها إن قُلبت سُرَه

مني بري صغير الثمر داخله كالرمل قليل الحلاوة. وبستانيّ أكبرُ شجراً وثمراً.

وأجوَد الكل الرقيقُ القِشر، الحلو العطريُ المائيُ.

*   *   *

وقالت آسَة

وقالت آسَة

قدسني الرومان، وجُعلت رمزاً للنصر عند اليونان. وعنواناً للتكريم عند العرب. وعُرِفتُ عندهم بالريحان. وقيل بالشام عن البستاني مني: قف وانظر. عرفت في مصر بالمرسين. ولعله من إسمي اليوناني مرسي أصبح بالفرنسية **myrte** وبالإنكليزية **myrtle**.

ذكر الطبيب داود الأنطاكي أنني مفرح وأنفع من الصداع والنزلات، وأُفتت الحصى شرباً وأزيل الورم، وأصلح الناقهين ضماداً لا يعدلُنِي شيء، وأُنبت الشعر، وأمنع السموم كافةً.

ثمري عند العامة هو الحنبلاس أو الحمبلاس، يعنون حب الآس. ويرغبون بالكبير منه لحلاوته ويشبهون به الإنسان عندما يكبر ويتجمل ويقولون للجميلة: مثل الحمبلاس الشامي، كلما كبر كلما حلي.

وفي أمثال البيارتة قولهم: بخمسة آس ولا عازة الناس، دلالة على نفورهم من السؤال ومن الحاجة إلى الناس، فخمسة قروش تكفي لشراء أعواد منه توضع على القبر. ولعل ذلك عائد إلى أسطورة قديمة.

زعموا أن الملكة فدرا، كانت تقضي سحابة يومها ممددة في برج الوهم تحت شجرة من شجراتي، فكانت من سأمها ومللها تأخذ الدبوس الذهبي الذي تمسك بها شعرها الأشقر وتغرزه في أوراقي،

وهكذا حتى أثخنت الأوراق كلها وخزاً وغرزاً. ومضت الأعوام وهي بالإنتظار، ثم اختَلَت في مقصورتها وشنقت نفسها بزنارها الحريري. ومن أجل ذلك يضع الناس في بلاد الشام باقة من أغصاني على قبور موتاهم، حتى أن الزوجة تظهر حبها لزوجها فتدعو الله أن يكون هو من يَشكل آسها أي يضع الآس على قبرها.

كان مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله في حديقة أنس مع جماعة من أصدقائه، وقد طلب منه بعضهم تشبيه أغصاني وثماري فقال:

يا حسن حب الآس فوق غصونه
فاق الثمار بطيب أحسن مُحتدِ
در بأسلاك النضار منظم
أضحى يدلى من سماءِ زمردِ

وأشار إلى خاصية الآس في التنفيس عن المغموم فقال:

وأشجار آسٍ بدا حبها
فولت بها عن فؤادي الغمومُ
فليست سوى سِدرة المنتهى
ومن فوقها تتدلى النجوم

وقد اتخذني بعض البساتنة سياجاً لحماية ورد الجنائن كما قال الشاعر البيروتي عمر الأنسي:

حمى ورد الرضاب العذب كي لا
يفوز بلثم ميم الثغر صادي
وسيج ورد وجنته بآسٍ
مخافة أن تمد له الأيادي

وفي الحكايات الشعبية حكاية بعنوان «عِرق الآس» وخلاصتها أن امرأة لم يرزقها الله بولد ودعت الله أن يرزقها ولو بعرق آس. سمعت أحدَ باعة الورد ينادي على الريحان. فاشترت منه عرق آس وزرعته في حوضٍ بشرفة منزلها.

وكبر العِرقُ وأثمر. ولاحظت المرأة أن الطعام كان ينقص في البيت. واختبأت ذات يوم، فوجدت عرق الآس قد تحول إلى صبية حسناء.

شاهد ابن الملك من شباك قصره الصبية. فاشترى العرق من المرأة، وخرجت الصبية فتزوجها.

وفي طقطوقة غنائية قالوا:

سموكِ ما أنصفوا ... سموك عرق الآس
مزروعة بين الشجر ... مشكولة فوق الرأس
والرمل ما ينعجن ... والشوك ما ينباس
والسر ما تسلمه ... إلا لخيار الناس

ومن القدود التي نظمها الشاعر مصباح محمد البربير (توفي سنة ١٢٨٨هـ بطاعون بيروت) قد أقسم فيه الشاعر بآس فوق خد الرشا فقال:

قسماً بالخد يا هذا الرشا
وبآسٍ فوق وردٍ عرشا
كذب العاذل في ما قد وشا
بل أنا قن الهوى حقاً أنا

وقد سمى بعض البيارتة بناتهم آسة.

* * *

وقالت بَنَفسَجة

وقالت بَنَفسَجة

زُرقتي زُرقةُ اليواقيت.

ودهني سيدُ الأدهان.

يزيل الحرقة والألم،

ويصلح ما فسد،

في الرأس والجسد.

في سوادي واصفراري قال المفتي عبد اللطيف فتح الله:

تَبدَى البنفسجُ في روضةٍ

وقام يتيه على الجُلَنار

سواد العيون بأطرافه

تبدَى، ولا شك، بعضُ اصفرار

فيما حاكت أقراصِيَ العنبرَ على قول المفتي الشيخ أحمد الأغر:

إن البنفسجَ أقبلت نفحاتُه

كالمسك طيباً ثم لوناً أخضرا

في مجمع الخيرات قد بعثت لنا

أقراصه أضحت تحاكي العنبرا

وقد تساءل صالح عبد الحي فغنى: ليه يا بنفسج بتبهج وأنتَ زهر حزين. وسمى الكثيرون بناتهم بإسم ڤيوليت، من الفرنسية **violette** وتعني البنفسجة.

استعملت العامة تصريف إسمي لتدريب أولادهم على حسن الأداء بجعلهم يرددون عبارة تجمع بين البنفسجة والقرنبيطة تقول: بنفسجة واستبنفسنجناها، وقرنبيطة واستقرنبطناها.

وقالت تُوتَة

وقالت توتة

في سجل أنسابي أن جدتي قدمت ورقةً من شجرتي إلى حواء، فسترت بها عورتها بعد إخراجها من الجنة.

وقد نسبوا ذلك خطأً إلى التينة.

ومنذ أن زرعوني في هذه الأرض،

يلجأ الناس إلى تعريتي من أوراقي

وتقديمها غذاءً لإطعام دود القز،

وما يبقى منها يتخذون منه علفاً للمواشي.

ويقومون بجني ما أحمل من ثمر،

فيأكلونه،

ويتخذون منه شراباً سائغاً مختلفاً ألوانه، لذة للشاربين. بما يحويه من مواد سكرية وبروتينية وفيتامينات.

فهو يشفي من أمراض الحَلق، ويهدىء السعال، ويقوي الدم.

ولا يكفي ما أعانيه من قوة الرياح والأعاصير، بل يقومون بهز جذعي وفروعي، لأسقط ما أحمله من ثمار، ثم يبيعونها بالهزة ويقولون: هز التوتة يا تواْت توتك شامي يا توات.

ويقومون بربط دوابهم بجذعي.

ثم يهجرونني، ويُشيدِون بمنافع الخس.

فإذا تعرَت فروعي وأغصاني، لم يدعوني وشأني. بل استعملوني

لنشر ثيابهم. وعابوا من تفرنج وعلَق قُبَعته بالتوتة بدل طربوشه فقالوا: برنيطة أبوه معلقة بالتوتة.

وإذا آنسوا مني غصناً يابساً،
عمدوا إلى قطعه والإحتفاظ به،
لموقد النار في ليالي الشتاء الباردة.
وإذا لبسوا الحرير المنسوج من عصارتي،
نسوا ما قدَمته،
بل نسبوه إلى دودة لا غذاء لها ولا حياة أو عطاء بدون ورقي.
ثم صدروا الحرير إلى حسناوات الدنيا،
وتباهوا به وجنوا منه الثروات الطائلة.

روت لي والدتي أنه لما أخذ دود القز ينسج أقبلت العنكبوت تشبهه وقالت: لك نسج ولي نسج. فقالت دودةُ القز: ولكن نسجي أردية الملوك ونسجك شبكة الذباب وعند مس الحاجة يتبين الفرق. وأنشدت:

إذا اشـتـبـكـت دمـوع فـي خـدودٍ
تـبـيـن مـن بـكـى مـمـن تـبـاكـى

أدخلتني العامة في أغانيها فقال شاعرهم:

رزق الــلَــه ع كــبــوش الــتــوت
شــو كــانــت حــلــوي بــيروت
كــنــا نــلــعــب بــالــليرات
وبــالــذهــب والياقــوت

وغنت شحرورة الوادي صباح: لا تهز كبوش التوتة.

كانت ثماري في قديم الزمان بيضاء، وتحولت إلى حمراء داكنة، لزعمهم بأن شاباً وسيماً أحب فتاة حسناء، ولكن والديهما منعاهما من الزواج فتواعدا على اللقاء ذات مساء عند شجرة من توتي

الأبيض. وخرجت لتفاجأ بعيون حيوان مفترس قادم نحوها، فاختبأت منه وسقط وشاحها أثناء ذلك فمزقه الحيوان بكفيه ولطخه، وأقبل الشاب ورأى الوشاح، فظن أن الحيوان افترس حبيبته، فبكى وانتحب وطعن نفسه بسيفه، فسال دمه عند جذع التوتة وصبغ ثمرها باللون الأحمر. وخرجت الصبية من مخبئها لتجد جثة حبيبها، فأغمدت سيفه في أحشائها وسال دمها عند جذع التوتة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت ثماري عندما تنضج حمراء داكنة.

وارتبط إسمي بخان من خانات بيروت عرف بخان التوتة أو قيسارية التوتة، كان موقعه في سوق البازركان، نُسب بناؤه إلى الأمير يونس أو الأمير منصور. ووضع ميزان للحرير أسفل الخان وكان الحرير يوزن به. واتخذ الشيخان محمد الحوت وعبد الله خالد دكاناً لهما في الخان المذكور لتجارة الحرير، وكان أهل القرى يأتون بحريرهم إلى دكان الشيخين ليبيعاه لهم بالأمانة. فكانا كلما باعا حملاً وضعا ثمنه في ورقة كدش صفراء ودونا عليها إسم صاحبها ووضعاها على الرف، وكان القروي يأتي في آخر الموسم، فيتسلم ثمن حريره، ويشكر الشيخين بعبارة «الله يعوِضكم البركة». وقد أطلق على هذا الخان فيما بعد خان المَزَيكة - الموسيقى - عندما أخذت تباع فيه الآلات الموسيقية.

وفي تاريخ بيروت أن الوالي أمين مخلص باشا عندما قدم إلى بيروت سنة ١٨٤٨م وأراد فتح الطريق التي تمر في كروم آل ادريس المزروعة بأشجار منا، اقتضى ذلك التضحية بعدد منها، فتم قطعها. وفتح ما عرف بعد ذلك بباب ادريس. ورُويت أن زوجة صالح ادريس صاحب الكروم، أخذت يومها تشتم الوالي، وكان يجيبها قائلاً: سوف تخصين أمين مخلص بدعواتك الخيرية. ولما قدم بعد ذلك بسنوات وجد أن كروم التوت قد تحولت إلى مخازن ودكاكين

ومنازل، قصد منزل تلك السيدة وسألها عما إذا كانت لا تزال حاقدة عليه. فاعتذرت إليه وشكرته ودعت له بالخير.

يثبت السجل المشرف لأسرتنا أننا خلقنا للعطاء، وأننا لا نطمح بتكريم ولا نأمل بوفاء. ففي السجل المذكور أن لجنة تألفت سنة ١٩٠٢م لإعداد مسابقة لفيالج الحرير التي نسجتها الشرانق مما التهمته من أوراقنا. كانت اللجنة مؤلفة من عبد الرحمن باشا بيضون ورسلان أفندي دمشقية رئيس حجرة (غرفة) التجارة ويوسف بيك فرعون. وقد عرضت الفيالج للتفرج عليها في دائرة البواخر الروسية في خان أنطون بك.

ثم جرى الإحتفال في ساحة الحميدية (ساحة البرج) يوم الثلاثاء ٨ ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م بتوزيع الجوائز، فكانت الجائزة الأولى وقدرها عشر ليرات ومدالية ذهبية من نصيب الشيخ محمد الشهال من طرابلس، والثانية ثمان ليرات ومدالية فضية إلى الراهب أراس رئيس دير بيت حبوق، والثالثة ثمان ليرات ومدالية فضية لمار شويا من زمارين، والرابعة سبع ليرات ومدالية فضية إلى رشيد أفندي كرامي مفتي طرابلس.

كما دون في السجل شكرنا لطور قوميان مدير دار تعليم الحرير في برصة بتركيا عندما قدم إلى بيروت سنة ١٩٠٢م وشاهد أن أصحاب التوت ـ سامحهم الله ـ يزبرون أشجارنا بالمنجل بما يضر بنا ويسرع العطب إلينا، وأحضر معه نموذجين من آلة يستعملها أصحاب التوت في برصة، فأرسل واحدة إلى طرابلس، والثانية إلى صيدا، وأصدر والي بيروت أمراً بتعميم استعمالها محافظى على أشجارنا وإنماء لصناعة تربية دود الحرير.

ولا تتذكرني الجدات إلا عندما يأوي الأطفال إلى أسرتهم، ويطلبون من جداتهم حكاية، فتبدأن بسرد حكاية من حكايات الجنيات والمردة، إلى أن تنعس العيون، وتدبل الجفون، وعندها يقلن لهم: توتة توتة... خلصت الحدوتة.

وقالت تِينَة

وقالت تِينَة

في الأثر أن آدم لما أكل من الشجرة وظهرت عورته، صار هائماً في الجنة، وطافَ بأشجارها يسألها ورقة يغطي بها عورته، فزجرته أشجار الجنة، حتى رحمته جدتي، شجرة التين، فأعطته ورقها، فكافأنا الله بأن سوى ظاهرنا وباطننا في الحلاوة والمنفعة.

فثمري حلو المذاق، غني بالمعادن، ملين يفيد الأمعاء. يؤكل طازجاً ومُجففاً ومعقوداً. ثماري فاكهة للصيف ومؤونة للشتاء. اعتُبرتُ أصحَ الفواكه غذاءً وتسميناً. لا يَعدِلُني فيه شيء كما قال الطبيب داود الأنطاكي في «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب».

من قطف مني حبات غير ناضجة، عاقبته بسائل أبيض مؤذٍ للعينين.

كرمني التنزيل فذكرني مع الزيتون.

لا أكلف المزارع أية مشقة. فلا أحتاج إلى سقاية ولا إلى تسميد أو تشذيب.

أعيش في الجبال العالية، وأنمو في الأرض الساحلية.

ذاعت شهرتي في جبل لبنان فقال المنادي: تين الجبل، دبلان دبل. وسُمِيت عِدَةُ مناطق في بيروت بإسمي، مثل محلات تينات جل البحر وتين الرمل وعين التينة.

استعملني الظرفاء في النوادر، ذكرني هنري غيز في مذكراته: نسبوا إلى أحد أهالي رأس بيروت أنه دعا ضيفاً إلى مائدته، ثم تأخر عمداً بتقديم الطعام، فنزل الضيف إلى البستان، وقد أخذ منه الجوع مأخذه، فجعل يأكل حبات من التين دون تقشير، ولما أحس بالشبع، نادى ربُ البيت إبنَه وسأله عن الضيف: قشر؟ فأومأ له الإبن بالإيجاب، فدعا ضيفه عندئذ إلى الطعام.

أشد ما يؤلمني عصفور يختار الحبة الناضجة من ثمري فينقرها، ولا يزال كذلك حتى يسمنَ ويكسو الدهنَ جسمه، وهو يعرف عند الناس بعصفور التين، يصطادونه ويأكلون ولا يذكروني بخير. حقاً إنها إحدى عادات بني آدم السيئة.

ضُربَ بي المثل فيمن يعود من قطافه بسل فارغ فقيل: طلعت سلته بلا تين.

واستدلوا على إعتدال المناخ بالمقارنة بين ورقي ورِجل البطة فقالوا: لما بتصير ورقة التين قد إجر البطة نام ولا تتغطى.

ودخلتُ في الأغاني الشعبية، كما نظم قيصر المعلوف:

إيدي وإيدك عالوادي	مناكل تين سوادي
مناكل لنشبع	ومنجيب معنا زواده
خبز وتينة أحلالي	مع شرفي وراحة بالي
كلو نعمة من اللّه	عايش راضي شو عبالي
يلا نقطف تينتنا	كل العالم سبقتنا
كل مين حصل نصيبو	لكن نحنا يا حسرتنا
قمنا عبكره جيعانين	بسبة إنا مش عاجنين
رحنا وجينا عالفاضي	وسلي وسلك بلا تين

وقالت جمّيزة

وقالت جمّيزة

شاهد الطبيب داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨م عدة شجرات مِني في بيروت كما ذكر ذلك في تذكرته.

ظلالي وارفةٌ، وجذوعي تعمرُ بها المساكن، وتُتخذُ منها الأبواب. لما منحني الخالقُ من قدرة على مقاومة عوامل الطبيعة، وصبر على الشمس والماء والهواء.

كنت صديقة البيروتي. أقيه من حر شمس الصيف اللاهب الرطب. فإذا انتصف شهر آب (أغسطس) واكتمل القمر، نضجت ثماري، وسُمع الباعة ينادون: تمَر الجمّيز، تَمَر، لذة للآكلين.

وما بقي من ثماري أقدمه رزقاً رغداً لليمام المعششِ بين أغصاني.

فإذا نَخَر الزمن، قسماً من جذع شجرتي المعمرة في محلة الأوزاعي، وثبت الباقي، جعلته مغارة يلعب فيها الأولاد لعبة الغميضة.

وعندما أخنى علي الدهر، وتداعت بعض فروع شجرتي المقيمة في حرم مدرسة مار الياس بالطينة، وقيل إنها جمّيزة داود الأنطاكي، قدمت لي المدرسة أعمدة ما زلت أتوكأ عليها.

كانت لكل واحدة من شجراتي في بيروت حكاية:

فجمّيزة ساحة السور «عصور» (ساحة رياض الصلح حالياً) أو جمّيزة بنت النحيلي، التي اتخذت منها بنت من أسرة النحيلي، مكاناً للتبسيط. وأعجب بها إبن الوالي، فتزوجها وسافر بها إلى باريس. وعند رجوعها، مرت على الساحة وشاهدت الجمّيزة فتساءلت ما هذه الشجرة؟ لا يوجد في باريس مثلها؟ فقالوا: كبرت بنت النحيلي عن جمّيزة عصور.

وجمّيزة باب السنطية أو جمّيزة الرجل الصالح، التي حاول رجال إبراهيم باشا قطعها، ليجعل من فروعها مخابط للأرز، وروى قصتها قنصل فرنسا في بيروت هنري غيز في كتابه المطبوع في باريس سنة ١٨٣٧م قال: «كان يوم باشر الجنود بقطع أشجار الجمّيز قاتماً، وقد ثبتت جمّيزة باب السنطية أمام فأس الوالي لأن الجنود عندما قدموا لقطعها، وجدوا رجلاً يمسك بها ويقبلها وتبين أن رجلاً صالحاً غرسها قرب سبيل ماء، ليتفيأها العابرون، فيترحمون عليه، وعندما فهم الضابط الموفد لقطعها قصتها عفا عنها».

وجمّيزة بيت المحمصاني في البسطة الفوقا وقصتها أن أوراق حزب العربية الفتاة كانت عند محمود المحمصاني، أحد أركان الحزب البارزين وأحد شهداء السادس من أيار، وعندما أكتشفت أوراق القنصلية الفرنسية في بيروت وظهر فيها إسمه، صدر الأمر باعتقاله وجلبه إلى الديوان العرفي في عاليه، وخاف إفتضاح أمره، فخبأ الأوراق في جذع شجرة الجمّيز الكائنة في منزل اسرته في محلة البسطة الفوقا.

وعندما اعتقل وتوقف القطار الذي يقله في بعلبك، شاهد إبراهيم حيدر المنتسب مثله إلى الحزب، فدخل مرحاض القطار وكتب رقعة دفعها إلى إبراهيم، الذي انصرف إلى بيته واستدعى شقيقته وكلفها بالسفر فوراً إلى بيروت ومقابلة فاطمة المحمصاني

شقيقة محمود - وإبلاغها ضرورة إتلاف الأوراق. وما كادت الأوراق تحرق وتتلف، حتى دَهمَ العسكرُ الدارَ وخاب ظنهم.

وجمّيزة زقاق البلاط التي كانت تقيم بجوارها امرأة عجوز في بيت متواضع. وعندما اشترى عبد الفتاح آغا حمادة متسلم بيروت، قطعة أرضٍ بجوار بيت العجوز، وأبلغها بأنه يريد بناء بيتٍ فيها: قالت له: بفية الجمّيز ما بينبت حشيش، وإن نبت ما بيعيش. إشارة منها إلى ظلال الجمّيزة التي لا تسمح لأشعة الشمس بالوصول إلى الحشائش النابتة عند جذع الشجرة.

فطمأنها الآغا قائلاً لها: جارِك أمان دارِك أمان.

وقد أرخ المفتي الشيخ أحمد الأغر سنة ١٢٤٢هـ قصر عبد الفتاح آغا وحديقته التي زرع فيها الورد والريحان والنمام والخزامى فقال:

هــذه دار بــنــاهــا	ابن سعد ذو احتشام
كم حوت قصراً مشيداً	قد تسامى بانتظام
وبها الإيوان أضحى	حاكياً قوس الغمام
جمعت وهي عمار	غرف الحسن العظام
حولها جنات عدن	قد حوت كل المشام
مثل ريحان ونما	م وورد وخــزام
فليأت بالعز فرحاً	دام فيها السعد دام
ربها لا زال فيها	بســرور لا يضام
قال للأضياف أهلاً	ادخلوها بسلام
ناظروها مذ رأوها	دهشوا إذ لا ملام
فرجوا الشعر إليها	أرخوها بغرام

وقد وَجدَ عمر فاخوري في المثل الذي قالته العجوز، إنكار البيارتة للإقطاعية القبلية التي كانت معروفة ـ ولا تزال ـ في بعض مناطق من لبنان، بمعنى أنه حيث توجد زعامة إقطاعية، لا تعيش الحريات والكرامات في ظلها، وأن أبناء بيروت كانوا وما زالوا طلاب حرية.

وجمّيزة المصلى، قرب جبانة المصلى، في الساحة قرب السراية، وكان أهل الميت يقفون تحت الجمّيزة لتقبل العزاء. وصف رحال روسي زار بيروت سنة ١٨٤٤م هذه الساحة فقال: «تنبسط وراء بوابة المدينة مباشرة ساحة مستديرة تتوسطها شجرة ضخمة تمتد أغصانها من حولها إلى مسافة بعيدة على شكل خيمة كبيرة يجلس تحتها باستمرار في أيام الحر بضعة أشخاص من الأغنياء الذين لا عمل لهم، والهاربين من أجواء المدينة الخانقة، للترويح عن أنفسهم والإستمتاع بالنسيم البارد والهواء النقي. كذلك يأتي الفقراء الذين أنهكهم العمل والحر الشديد ليستريحوا في ظِلها المنعش وينسوا أحزانهم ومتاعبهم ولو للحظاتٍ يسيرة.

وعندما تعتدلُ درجةُ الحرارة، يخرج الشبان العرب جماعات جماعات للهو والمرح. فترى في كل مكان بعض المسلمين وقد بدا عليهم الوقار، يفترشون بعض السجاجيد ويؤدون عليها صلاة المغرب، بينما يتوضأ آخرون استعداداً للصلاة فيغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم بماء عذبٍ يؤخذ من نافورةٍ ماء لا تنضب. وعلى طرف الساحة من ناحية المدينة، تمتدُ مقبرة صغيرة تظهر فيها بين الحين والآخر نساء مسلمات يرتدينَ أثواباً بيضاءَ فضفاضة متشابهة تغطيهن من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين حتى لتحسبهن تماثيل من المرمر فوق القبور» وقال رحالة آخر بأن حلاق المحلة كان يستظلُ

الجمّيزة المذكورة، فيُجلس الزبون على كرسي قش ويُحمله قطعةً من مرآة مكسورة، ويستوفي أجره رغيفاً وبصلة.

وجمّيزة المفرَق التي أظهرت الخرائط الطوبوغرافية التي وضعها سنتي ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢م مهندسو البحرية الإنكليزية عند الحملة لإخراج إبراهيم باشا من بيروت، وتقع في محلة الدورة. وهي كما يدل أسمها نقطة التقاء طريق طرابلس بيروت وطريق أخرى تبدأ من جسر الرميلة وتصل حتى باب الدباغة، وقد أشارت إحدى الوثائق إلى قرب هذه الجمّيزة من مزرعة الغابة.

وقد حملت إحدى محلات بيروت القديمة إسم جمّيزة يمين (القنطاري)، وقد زال هذا الإسم بعد أعمال المسح الإجباري والتحديد والتحرير لبيروت. فيما بقي إسم الجمّيزة باقياً فيما كان يعرف «بزقاق الجمّيزة». والتي نشأت فيه حديثاً المطاعم والملاهي المختلفة.

وفرق العامة بيني وبين النخلة فقالوا: الطول للنخل والتخن (السمن) للجمّيز.

ومن جمّيزاتي في بيروت، جمّيزة زاروب عبلا قرب منزل الرئيس سليم الحص.

وجمّيزة البابور في موقع مصرف لبنان في الحمراء، والبابور لقب حمله نظير العيتاني بسبب عمله في شركة سكة الحديد. والبابور ترجمة للفظة الفرنسية **Vapeur**.

وجمّيزة فضول ربيز في رأس بيروت سمى السكان أحد أغصانها عزرائيل لضخامته.

وقالت حبقة

وقالت حبقة

أنا من النباتات العطرية.

قالوا إن أصلي من الهند.

استُعملت للزينة وفي صناعة المشروبات الروحية.

عُرفت عند العرب بالريحان وعند أهل الشام والعراق بالحبق.

لا تخلو سطيحة بيت في بيروت من حوض يضم شجيراتي للتمتع برائحتي والإنتفاع بورقي.

شبهوا العروس الحبيبة في فقالوا في زغرودة:

أسمر سمرمر ياما عيروني فيك
وكل ما عيروني، زاد غرامي فيك
أنت الحبق بالطبق، وأنا ندى بسقيك
أنت القمر بالثريا، وأنا الشمس بضويك

وشبهوا الحبيبة بالحبقة التي يتحمل العاشق المشاق ويقتحم الأخطار ليتسلل إلى بيت معشوقته ويلثم فاها فقالوا:

خَشيت أنا لبيتكم، بعد العشا بنتفه
لقيتكم نايمين، وسراجكم مطفي
مديت إيدي عالحبق لأقطف أنا قطفة
صاحت بُنية لكم: جتنا حراميه

وفي سنة ١٨٨٨م ألغز الياس حنيكاتي في الحبق فقال:

ما قول أهل المعاني الحائزين السبق
في إسم ثلاثي يحاكي جونة الغسق
قلوب أولي الهوى طراً قد انتعشت
إذ منه جاء الصبا يالمندل العبق
إن بان آخره نادى المصحف يا
أخا الهوى هاك قلبي الآن فانتشق
لكنه عند فوت الرأس منه غدا
حال المصحف في ظن وفي قلق
في قلبه بعد نزع الذيل قد وجدت
لها المنايا إلى الأرواح من طرق

فحل اللغزَ الشاعر أحمد اللبابيدي على الشكل التالي:

لـلَه لغز بدا أسلوبه حسناً
من غير شك لنا في أبدع النسق
ضاعت روائح مسك من خمائله
وضاء من وجهه نور كما الشفق
قلوب أهل الهوى طراً قد انتعشت
إذ جاء منه الصبا بالمندل العبق
وقد شممتُ له ريحاً مضمخة
والشم يألف ريح المسك لا (الحبق)

وقد أدركوا قديماً قوة رائحتي فقالوا: رائحة الحبق فائقة العبق.

وقالت خَزُوبة

وقالت خَرُّوبة

شجرتي أعظمُ من شجر الجوز. أَنمو في الجبالِ الشامخة. وأكبرُ في الساحة، ويقال لي أيضاً الخرنوب.

منافعي للإنسان أكثر من أن تحصى.

قروني حُشيت حباً مفرطحاً يوزنُ به الذهب. وكل حبَةٍ مستقلة في بيتها. حتى ضُرب فيَ المثل فقيل: إن حبَة الخروبِ طلبت من رَبِها بيتاً مستقلاً لها، فاستجيب رجاؤها.

عصروا الدبس من قروني. ولمَا وجدوا أن كميةَ هذا الدبس قليلة مقارنة بعظَمِ جذعي وأغصاني قالوا: كما قال الشاعر عمر الأنسي في وصف الفتى المعصراني:

أراك شـــهـــداً وكـــالـــخَـــرُوبِ آونـــةً

رطلٌ من الحلو في القنطارِ من خشبِ

عُصرت قروني في عدة معاصر في بيروت كمعاصر دندن والأنسي والغندور والناطور ودسوم وجبر والسبليني والجبيلي ويارد وغيرهم.

ولطالما استندوا إليَ في بيان الحدود الفاصلة بين الأراضي وتعيينِ مواقعِ العقارات. وقد أعطت شجراتي إسمها لأزقةٍ عديدة في بيروت، وكانَ لبعض الشجرات حكايات:

ففي ١٤ شوال سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٤م) اشترى سليم ومحمود سعيد درويش من ضاهر سركيس زيدان قطعةَ أرض مشتملةٍ على أغراس كائنة في زقاق الخروبة التابع لمحلة دار المريسة[١].

وفي ١٣ رجب سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) اشترى سليم ومحمود سعيد درويش من شكري نعمة الله الخوري، قطعة أرض كائنة في زقاق الخروبة في محلة ميناء الحسن[٢].

وفي ٢٩ رمضان سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) اشترى الحاج محيي الدين سليمان منيمنة قطعة أرض كائنة في زقاق الخروبة التابع لمحلة مزرعة العرب[٣].

وفي ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) اشترى حبيب وشكري ولدي الخوري الياس غبريل، ونقولا وإبراهيم وسليم أولاد مكاريوس غبريل من ناصيف وطعمة ميخائيل غبريل، قطعة أرض في زقاق الخروبة التابع لمحلة المصيطبة، والقطعة محتوية على ثلاثة مدود (جمع مد) معدة لربط الحيوان وأغراس وبئر ماء نابع[٤].

وفي ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) اشترى محيي الدين ومحمد وأحمد حسين حطب من أمهم خديجة بنت زين الصليب، قطعة أرض كائنة في زقاق خروبة المعقصة من مزرعة رأس بيروت، المشتملة على أغراس متنوعة وبيتين[٥].

---

(١) سجل ١٢٩٠/٩١ رقم ١٩٤.
(٢) سجل ١٢٩١/٩٣ رقم ٧١.
(٣) سجل ١٢٩١/٩٣ رقم ١٩٥.
(٤) سجل ١٢٨٨/٨٩ رقم ١٢٨.
(٥) سجل ١٢٨٤هـ رقم ٣٦٩.

كما اشتهرت أربعة أصول مِنا في محلة المغاريق برأس بيروت.

وذاعت شهرة خروبة التنير في محلة شوران في رأس بيروت، وذلك خلال الحرب التي وقعت في البلقان بين الدولة العثمانية والصرب والجبل الأسود سنة ١٨٧٧م وتدخلت فيها روسيا، فقد كان ثلاثة شبان من رأس بيروت هم عمر سعيد دسوم وعبد اللطيف الفيل وحسن ملص مارين قرب الخرّوبة المذكورة وصادفوا بعض تلامذة المدرسة الكلية - الجامعة الأميركية - قاعدين تحت الخروبة، فأخذ هؤلاء يتكلمون عند وصول الشبان الثلاثة إليهم بالدعاء لروسيا بالنصر، مما أفضى إلى منازعة تبعها ضربٌ وملاكمة وسبابٌ وشتائم وانتهت بالقبض على المتعاركين.

دَخلتُ في إحدى الحكايات الشعبية بعنوان «كبي الدبسات واحمليني» وتقال لمن يطلب مساعدةً ممن يحتاج هو إلى مساعدة. وخاصتها أن ثلاث بنات فقيرات كن يغزلن الحرير ويبعنه في السوق. ذهبت الكبيرة إلى السوق باعت الغزل واشترت دبساً، وأثناء عودتها لقيها عجوز قال لها:

كبي الدبسات واحمليني
بفرشتك نيميني
بالمدقة دقيني
كومة دهب بالصبح بتلاقيني

فشتمته ولم تحفل به. وفي اليوم الثاني خرجت البنت الوسطى وحصل معها مثلما حصل مع الكبرى. وفي اليوم الثالث خرجت الصغرى، وأثناء عودتها قال لها العجوز ما قال لأختيها. فكبت الدبسات وحملته ونيمته في فراشها. وفي الصباح كشفت اللحاف عن كومة ذهب. وعلمت الجارة ما حصل للبنت، فاشترت حريراً وغزلته

هي وابنتها، وذهبت هذه الأخيرة إلى السوق، فكبت الدبسات وحملت العجوز إلى بيتها وضربته بالمدقة حتى مات.

وأدخلت العامة دبسي في أمثالهم دلالة على المهارة فقالوا بيلحس الدبس عن الطحينة.

ومن حكاياتهم أن كردياً مرَ بدكانِ بقالٍ وضع أمام دكانه صفيحة تحتوي على قطران، وسأل البقال عن محتواها. فقال له فيها دبس خروب. لعق الكردي بأصبعه لعقةً كبيرة، وأحسَ بالمرارة، ثم لعق لعقةً ثانية وقال للبقال: لا تقول كردي ما بيفهم، دبساتك مرين.

وقالت خوخة

وقالت خوخة

شجري يطول إلى ثلاثة أذرع، وربما زاد.

ورقي ناعم، وأغصاني قليلة الإحتمال للعنف.

مني بري وبستاني، يطعم أحدنا من الآخر.

ثمري يسكن العطش والغثيان والقيء والصداع وأوجاع اللثة ويدر البول.

وهو جيد ومفيد للمعدة والأمعاء، شهد بذلك الأصدقاء والأعداء.

قال عني الطبيب داود الأنطاكي رحمه الله وقد أجاد: إنها أجود من المشمش بكثير، وإن اليابس من ثمرها أجود من طريه.

أعرف في حلب بالقيصري، ويطلق علي أهل المغرب: عيون البقر.

وثمري في الشام أسود، منه نوع ينادي عليه الباعة: أبو ريحة.

أما أهل مصر، سامحهم الله، فقد أطلقوا علي إسم برقوق، ولست أدري أأخذوه من أسم السلطان المملوكي برقوق، أول المماليك الجراكسة، الذي تسلطن سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، أم أن السلطان المذكور أخذ إسمه مني، بعدما سماني به أهل مصر.

قيل إنه سمي برقوق لنتوء في عينيه. وروي أن الرعية كانت تخاف منه حتى كان العوام في مصر لا يقولون برقوق عندما كانوا يشترون شيئاً من الفاكهة التي تحمل إسمه. والحقيقة أنني وجدت قبل وجود السلطان المذكور، وأنا باقية بعده.

غفر الله للشاعر الذي مدحني ووصفني فقال:

وخوخة جمعت طعماً ورائحة

ومنظراً يا له من منظرٍ حسن

فيها من الطعم أصنافٌ مضاعفة

طعم الفواكه مجنيٌ من الغصن

وفي وسطها عجوة تشفي إذا عُصرت

من كل داءٍ جرى في الرأس والبدن

أضحت شفاءً وريحاناً وفاكهةً

زين الفواكه في الأمصارِ والمدن

وقد كنى البيارتة في أغانيهم عن الحبيب بشجرة مشمش وكنوا عن الحبيبة بشجرة خوخ فقالوا:

بداركم مشمشة وبدارنا خوخة

يا شجرة المشمش مالت على الخوخة

فنجان من ريقكم للصفرا والدوخة

فنجان من ريقكم يغني عن الميه

وقالت جورة

وقالت جورة

شجري يطول كثيراً حتى يقارب النخل، ولا سيما إذا صادفت الماء الكثير.

وخشبي من ألطف أنواع الخشب وأصبرها على المطر، فكان من يجلبني إلى بيروت بالبواخر، يرمي ألواحي في البحر، قرب الميناء المعروف بمينة الخشب، ثم يسحبونها إلى الشاطىء.

لجأ النجارون إلى خشبي لصنع الأبواب والنوافذ، قبل أن أنهزم أمام انتشار الألمنيوم.

وكان الخشب المصنع من شجري غالي الثمن، حتى ضرب فيه المثل فقالوا: إن تجارة الخشب بحاجة إلى ثلاثة أمور: سفينة نوح لضخامة حجم الأخشاب، ومال قارون بالنظر لإرتفاع سعري، وصبر أيوب لحاجة التاجر إلى الصبر وأضطراره لإنتظار حالة الأسواق وتزايد الطلب على الخشب بتزايد العمار.

ورقي كورق الصفصاف، لكنه أدق وأطول.

أحمل حباً كالحنطة يعرف بالسردلة. ولي صمغ يعرف حسب إبن سينا بالكهربا.

جاء في كتاب الشرح الجلي على بيتي الموصلي للشيخ أحمد

البربير «يقال لشدة بياض العين مع شدة سوادها الحور، وسميت الحور العين حوراً لوجود الحور في أعينهم، واحدتهن حوراء. فلا تكون المرأة حوراء إلا إذا جمعت بين الحور والبياض. وسمي الشجر المعروف: حوراً لشدة بياض ساقه دون الأشجار، وهو نوع من الدلب».

قال الشاعر:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وفي رسالة الغفران أن الشاعر سأل ملكاً من الملائكة عن الحور العين، فأجابه بأنهن على ضربين: ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرها. وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة. ويقول الملك للشاعر عن كيفية تميزهن عن غيرهن: خذ ثمرة من ثمار الجنة فاكسرها، فإن هذا الشجر من الحور.

وقالت دراقة

وقالت دراقة

تكثر أشجاري في بلاد الشام. أسمَى بالدراق، وبالدُراقِن، والعامة تُشِدد الراء، ومنهم من يقول الدُريق.

وأُعَدُ من فصيلة الورديات. لبي لذيذ الطعم، تغطيه قشرة مخملية رقيقة.

أشار مؤلف كتاب منزول بيروت إلى وجود محلة داخل المدينة القديمة، عُرفت بمحلة الدراقن، كانت فيها سنة ١٢٨٠هـ دار الخوري نقولا سالم باصيلا التي اشترتها صابات العشقوتي. ودار جرجس وجبور وانجول الصايغ التي اشتراها سنة ١٢٨١هـ أحمد محمد البواب، ودار كاتبة بربور التي اشتراها خليل وإبراهيم إسكندر ونجيب ونزهة وعفيفة حنا الصيقلي، ودار نقولا جرجس طنوس منسى التي اشتراها غبريل نعمة الله حنا شاتيلا مطران طائفة الروم الأرثوذكس في بيروت سنة ١٣٠٨هـ. وكانت تتضمن محلة الدراقن تتضمن كنيسة الروم الأرثوذكس وكنيسة الأرمن(١).

---

(١) عبد اللطيف فاخوري. منزول بيروت ص١١٦.

وقالت رمّانة

وقالت رُمّانة

ورد ذكري في القرآن، فقد جاء في سورة الرحمن ﴿فيها فاكهة ونخل ورمان﴾.

دخلت في أساطير اليونان، عندما زرعتني أفروديت في قبرص، ولما أكلت إلهة الخصب برسيفون من حبَاتي، أقامت بقربي شهوراً.

فائدة قشوري للدباغة مشهورة.

ومنافع حباتي للإنسان مشهودة.

شبهت واحدتنا بكرة لاعب أو بنهد كاعب.

أو بكرة مملوءة بحبات من العقيق والياقوت.

وهي طعام وشراب ودواء وقوت.

لون أزهارنا من أبهى الألوان.

دخلنا في حزازير الأولاد بقولهم:

طاسة فوق طاسة في البحر غطاسة، من جوا لولو، ومن برا نحاسة.

أكثر الشعراء من التشبيه فينا قال واحدهم:

رمانةٌ صبغ الزمانُ أديـمَـها

فتبسمت في ناضر الأغصان

فكأنما هي حقة من عسجد

قد أودعت خرزاً من المرجان

زعم المعري في رسالة الغفران أن في الجنة حدائق فيها شجرٌ يعرف بشجر الحور، منها شجرة رمان إذا أخذت منها رمانة وكسرتها خرجت منها جارية حوراء عيناء تدهش لحسنها حوريات الجنان.

تغنى المطربون والشعراء بلون أزهاري وحبات أكوازي. وأدخلوني في غزلياتهم فقالوا:

فرطت لك كوز الرمان

وطعميتك حبة حبة

حبيتك قد الحبات

وبزيادة عليهم حبة

وقالوا في أغانيهم:

تحت الرمانة   حِبي حاكاني

سمعني غناني   يا يُمَة وتغزل بيَ

وللشاب الظريف:

ورب ليل صحبنا في دجنته

من الكواعب أقماراً وأغصانا

بحيث نلثم تفاح الخدودُ على

بان القدود ونجني منه رمانا

ودخلت في الأمثال فشبهوا كرتي المملوءة حباً بقلب الحسود المملوء كرهاً فقالوا: ليست رمانة، ولكن قلوب ملآنة.

ولجأوا إلى غصن مني ليستدلوا به على وجود الماء في بعض المواقع.

ولطالما اتهموا الحسناء بأنها سرقت رُمَانتَي نَهديها من شجري؟

فهل كانت بريئة من هذه التهمة؟ قال الشاعر:

مـرت بـحـارس بـسـتـان فـقـال لـهـا
صـبـغـت تـفـاحـتـي خـديـك مـن نـظـري

وبـعـد سـلـبـك غـصـن الـبـان قـامـتـه
سـرقـت رمـانـتـي نـهـديـك مـن شـجـري

وكان الباعة في سوق بيروت سنة ١٩١١م ينادون على الثمر الحُلوِ مني «قفة رمان برادي».

وأطلقوا على الحامض المعتدل مني لقب: لفاني.

وفي طرابلس الشام نوع مني يسمى الهاجوجي، يمتاز برقة بزره.

وقالت زَعفَرانة

وقالت زَعفَرانة

إنَ لي عدَة أسماء، منها الزعفران والكركم والكركيماس والرعبل والدلقهان، أَنبتُ كثيراً في المغرب وأرمينية. زهري كالباذنجان فيه شعر إلى بياض إذا فرك فاحت رائحتي. وهذا الشعر هو الزعفران. من أراد أن يغش غيره خلطني بالعصفر.

وصفني الطبيب داود الأنطاكي لتفريح القلب وتقوية الحواس وتسكين أوجاع الأذن. وفي الأكحال لتقوية البصر والمعدة والكبد وإذهاب الغشاوة وتفتيت الحصى ودر الفضلات، ولأوجاع المفاصل والظهر طِلاءً.

قال الشيخ أحمد الأغر في وصفي:

وزعـــفـــرانٌ ضـــاحـــكٌ
فـــي يـــومـــنـــا الـــعَـــبُـــوسِ
أضـــحـــت ســـمـــاءُ أرضـــهِ
تـــنـــبـــت بـــالـــشـــمـــوسِ

وله من ذلك أيضاً:

كـــأن زعـــفـــرانـــنـــا
وروضـــه يـــا مـــن ذهـــب

زُمــردٌ صــيــغ ســمـــا

ءَ نــجـمـهــا مـن الــذهـب[1]

ومن تقاليد البيارتة في أربعاء (أربعة) أيوب، أي يوم الأربعاء الذي يسبق عيد الفصح الشرقي الخروج إلى شوران في المنطقة المعروفة بميناء الدالية فيغتسلون بماء البحر أو يغسلون عيونهم ويأخذون معهم نوعاً من الحلوى يسمى «المفتَقة» مؤلفة من الأرز والطحينة والسكر والماء والعقدة الصفراء أي الكركم، وإنضاجُها يتطلب وقتاً طويلا وهي بحاجة للتحريك الدائم حتى يفقس السيرج (الشيرج) أي ينفصل ـ ينفتق ـ ومن هنا إسمها المفتقة واللجوء إلى هذه الأكلة في بداية الربيع لما تمنحه المواد الداخلة في طبخها من طاقة ووحدات حرارية وحيوية ونشاط يحتاجها الجسم الذي عانى من برد الشتاء ومطره وكأني بهم يخاطبون تلك الحلوى قائلين: خذي منا اصفرار المرض والضعف والهزال وأمنحينا حمرة الصحة والعافية.

---

(١) ديوان أحمد الأغر ص٢١٢.

وقالت زنبقة

وقالت زنبقة

ذكرني إبن منظور في لسان العرب بإسم دهن الياسمين، مستشهداً بإبن بري الذي أنشد:

ذوَ نَمشٍ لم يدهِن بالزنبقِ

كما نقل قول الأعشى:

له ما اشتهى راحٌ عتيقٌ وزنبقُ

عرفتُ في بيروت القديمة بإسم زنبق القز، وكان من الحجم الكبير، المختلف عما أَلِفته بيروت فيما بعد من زنبق صغير الزهرة، طويل الجذع عطر الرائحة.

قال الشيخ المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله في الزنبق العتيق:

أنظر إلى الزنبق القزي حين بدا

وشم من نفحه الشافي من الوَصَبِ

فقد غزا ريحه في ريح ذي نتن

ففر منهزماً في خوفِ مضطرب

لو لم يكن غازياً ما كان تَوجَهُ

والي الزهور بريشات من الذهب

عَرفت بيروت عائلة منسوبة إلي هي أسرة الزنبقي، عرف منها في القرن التاسع عشر حسن بن محمد الزنبقي اللاذقي الذي كان متولياً رئاسة ميناء بيروت[1].

وعرفت بيروت نوعاً من الزنبق أطلقوا عليه لقب: «أبو عقدة» لأن زهوره لا تتفتح عندما يُقتطع جذعه.

وشاعت في بيروت في القرن التاسع عشر أغنيةٌ، لازِمتُها:

يا من زرع حوضنا من كل ألوان
من غيتو شكلو زنبق وسوسان

ومما نظمه الشيخ أحمد الأغر على قد الأغنية المذكورة قوله:

يا منيتي يا رشيق القد يا ثاني
عطفيه يا ذا البها يا قامة البان
جاء الربيع فقم خلي لشرب الراح
هذا زمان الصفا واللهو والأفراح
أفديك بالأهل والأموال والأرواح
صلني ولا تُشمِتِ اللاحي بهجراني
يا قاسياً يا لَيَنَ الأعطاف
يا ظَبيَ وادي النقا يا باهيَ الأوصاف
عامل مساكين أهل العشق بالإنصاف
واسمح وجُد باللقا يا نور إنساني

---

(١) كما ذكرنا في كتابنا: تاريخ القضاء الشرعي.

وقالت زنزلختة

وقالت زنزلختة

هكذا أسمى في مصر والشام. وإسمي بالفارسية ازدارخت.
أقارب الصفصاف، ورقي أملس إلى السواد، مر الطعم.

ثمري كالزعرور في عناقيد يدرك آخر الربيع ويدوم طويلاً.

كان الحلاقون يعلقون ضمة من أغصاني في دكاكينهم لطرد الذباب.

في أخبار بيروت أنه عندما انتخب إبراهيم فخري بك سنة ١٨٧٨م رئيساً لمجلس بلدية المدينة، وجه اهتمامه إلى تنظيم ساحة البرج وتحويلها إلى حديقة كالحدائق الأوروبية، فبنى حولها رصيفاً من الحجارة، جعل داخله إطاراً حديدياً. وغرس خارجه عدداً وافراً من أشجاري ومن الأزهار.

فأطلق الناس على الحديقة إسم المنشية.

زرعت بعض شجراتي في مناطق مختلفة من بيروت، واعتُبرت مقياساً لتحديد الحدود الفاصلة بين الأراضي. ففي سنة ١٨٤٦م باعت بربارة الموراني قطعة من بستان الموراني في محلة رأس بيروت حدها من أصل شجرة المقساس لجهة القبلة إلى أصل شجرة الزنزلخت لجهة الشمال.

وفي مذكراتي صورة لقرار المجلس البلدي في بيروت الصادر

سنة ١٨٩٤م والقاضي «بزرع أشجار الزنزلخت في الطرق التي يبلغ عرضها خمسة عشر ذراعاً فوق، للإنتفاع بظلها صيفاً».

وقد سرني أن حبيباً خاطب حبيبته تحت شجرتي قائلاً:

عـاالـزنـزلـخـتـي وعـالـزنـزلـخـتـي
ريتك يا حلوي من حظي وبختي
بـــدك بـــادل، بـــبـــادل بـــأخـــتـــي
بـــدك مـــصـــاري بـــدفـــع مـــلـــيـــونـــا

وقالت زَيتُونَة

وقالت زَيتُونَة

حق لي أن أفتخر لأن ذكري ورد في التنزيل، وقد أقسم الله بي في الكتاب العزيز. كما قدمتُ لبني الإنسان خدماتٍ جُلى، قوبلت بالعقوق.

ويكفيني فخراً أيضاً، أنني قدمت عصارة حباتي دواءَ للمرضى. ووقوداً للأسرجة، وتبديداً للظلمات. دهنت بها الأجسام المتعبة تبركاً. وفرك بها الرياضيون زنودهم وعضلاتهم تباهياً.

صُنعت من عصارتي أجود أنواع الصابون، المختلفة الأشكال والألوان، ليزيل ما علق في الأجسام والثياب، من أدران العمل، ووسخ الطريق.

وكان ثوابي أن يضربني الإنسان بالعصي، ليجني ثمري.

وإن كان لي أن أذكر من حسن أعمالي، فليس أَقَلَها أن حمامة نبي الله نوح حملت غصني في منقارها، وعادت بي إلى السفينة، تحمل البشارة بالأرض الموعودة.

ومنها أيضاً، كلمة الله وروحه، الذي جعلني تاجاً على رأسه، عندما دخل القدس، رسولاً للسلام. عليه وعلى أنبياء الله السلام.

وفي سورة النور أن ﴿الزجاجة كأنها كوكبٌ دريٌ يوقدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ﴾.

أي بحيث تقع الشمس على طول النهار. وفي تفسير الجلالين: بل بينهما أي بين الشرقية والغربية، فلا يتمكن مني حر ولا برد. وقيل لأني لست من الأشجار المختصة بالشرق أو الغرب، فإني أنبت فيهما جميعاً.

قال الحريري في المقامة الحلبية: بورك فيك من طلا، كما بورك في لا ولا، أي في شجرة الزيتون التي هي لا شرقية ولا غربية.

وفي روضة من زيتون وضيائها قال المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله وكان مع جماعة تحت أشجاري:

وروضة زيتون أقمت بظلها
بجمع لهم دون الورى العز والعقلُ
وقد مالت الأغصان تحنو عليهم
وحنت حنان الأسد إذ يرضع الشبل
ولا بدع إن مالت إليهم لظنها
وهم هم ضياء، أنها لهم أصلُ

لعل أقدم شجرة من أشجاري، زيتونة في محلة ميناء الحسن التي أعطت إسمها لمحلة في بيروت عرفت بمحلة الزيتونة، وكان بالقرب منها مد لربط السفن، وغدت هذه المحلة أيام الإنتداب الفرنسي المتنزه الرئيس لسكان بيروت وروادها من الشباب والشابات ولا سيما أيام الآحاد والأعياد. وانتشرت فيها الملاهي والصالات الفنية كالكيت كات والليدو، كما اشتهرت فيها الحمامات البحرية كحمام عجرم وحمام الحطب.

وعرفت محلة أخرى في محلة الأشرفية بإسم كرم الزيتون. وأطلق هذا الإسم أيضاً على محلة في منطقة مزرعة العرب ـ النويري حالياً ـ فتح فيها سليم صالح سنة ١٨٧٨م مدرسة في حارة الشيخ

عمر الفاخوري لتدريس اللغات العربية والفرنسية والإنكليزية والحساب وحسن الخط.

ووجدت في محلة الدحداح - اليسوعية طريق الشام - كروم زيتون عرفت بإسم زيتون بني دندن. وقد ارتبطت هذه الكروم بإسم حافظة دندن التي أنشأت فيها برجاً للإصطياف والإستجمام عرف ببرج دندن. يذكر أن حافظة دعت يوماً زوجة متصرف بيروت لقضاء النهار في تلك الكروم. وعندما أرادتا الإنصراف والعودة إلى داخل المدينة، همت حافظة بركوب عربتها وكانت مريوحة، خرج منها صوت، فخجلت وأخذت تقرع العربجي الزنجي المملوك وتوبخه ناسبة الفعل إليه. فما كان منه إلا أن احتمل الأمر واعتذر من سيدته، التي أعجبت بتصرفه وسرعة بديهته، فوهبته قطعة من الكروم له ولأولاده من بعده. وقد أقيم فيما بعد على القطعة الموهوبة للعبد مخفرٌ للشرطة عرف بكركول العبد.

أما تسمية تلك المحلة بالدحداح، ففي حاجة إلى تحقيق. قيل إن الدحادحة هم من أصل عربي من اليمامة، وإنهم ينتسبون إلى أبي الدحداح، ثابت بن الدحداح الصحابي، الذي دخل بلاد الشام فاتحاً مع خالد بن الوليد، وتوفي فيها. وورد في معجم تاج العروس أنه مما يستدرك في الحديث «كم من عذق دواح في الجنة لأبي الدحداح».

ولما كانت تلاقيه الصبايا من تعبٍ في مَشقِ حَبَاتي (أي قطفها) سُمعت إحداهنُ تُفضَلُ الشاب البيروتي وتقول:

أمـــي يـــا أمـــي　　بـــدي الـبـيـروتـــي
الـفـلاح بـيـقـول لـي　　اشـتـغـلـي لـتـموتـي
أمـــه بـتـقـــول لـــي　　عـــالـــدار لا تـفـوتـــي
أبـــوه بـيـقـــول لـــي　　إمـشـقـي الـزيـتـونـا

وعندما صنع أحمد فانوس في القرن التاسع عشر من زيت حبَاتي

أفخرَ أنواع الصابون للحسناوات وللصغار والشباب، كتب الشاعر الشيخ أبو الحسن قاسم الكستي يقول فيه: «إن علامة الإختراع النافع يعد من بدائع الصنائع، وبها يفوز الإنسان بكسب المال والثناء، وتجب له الكرامة والإعتناء من أبناء جنسه، وربما يتوصل بذلك إلى منزلة لم يكن في أمله أن يرقى إليها. وقد يدرك المرء باجتهاده وجده، ما لم يصل إليه أبوه وجده. ومن اختار الكسل لم يلعق العسل. وإن ممن نبغ في عمل الصابون على أنواع شتَى السيد أحمد فانوس البيروتي فأتى في اصطناعه بالعجب العجاب فمنه ما يزيل الأدهان والدرن. ومنه ما ينقي بشرة الوجه والبدن. ومنه ما له طيب الرائحة وغير ذلك مما هو مستحسن عند ذوي العقول، حتى أنه شرع في عمل صابون يزيل الشعر إذا طلبت إزالته بكل سهولة بدون غائلة. وحيث أن كل محسن يجب له الذكر الجميل، فقد أبدينا بحقه هذه المقالة، لتعلن في الجرائد الوطنية فتعلم حقيقة حاله وترغب الناس بأعماله.

فعسى أن تكونَ عاقبةُ صنعتهِ جالبةً لثروته، وحينئذ يجتهدُ من رآه أن يخترعَ مثله شيئاً نافعاً للأنام، فينال ما ناله من المرام، ومنه تعالى التوفيق».

كانت العامة إيماناً منهم ببركة الزيتونة، يعمدون إلى تجفيف نواةِ الحبَات وثَقبها ليجعلوا منها مسبحةً للصلاة وذكر الله.

ومن أقوالهم في تفضيل الزيتون على الجبنة: الزيتونة أحسن ما يكون والجبنة ما بتعجبني. وإذا غاب الخبز والزيتون، الشبع متى يكون؟ ولأنهم لم يجدوا وسيلة للاستفادة من غذائي إلا بالضرب، فقرروا أن الزيتون لا يؤكل إلا بالرص. سامحهم الله.

وقالت شقيقة النعمان

وقالت شقيقة النعمان

أحبني النعمان بن المنذر ملك الحيرة لأنه مر بمكان قد انفرش فيه هذا الزهر فقال:

ما أحسن هذه الشقائق وأمر بحمايتها وملأ بها ما حول قصره المعروف بالخورنق فسموني شقائق النعمان.

إذا جاء الربيع الطلق خرجتُ من بين الأعشاب أختال زهواً وأتمايل فرحاً. وقد ارتفعت جذوعي نحو ذراع وانعقدت فوقها رؤوس كأنها الورد تنفتح عن زهر مستدير داخله بزر أسود، وتسارَع الصِبية لجمع ضمة من أزهاري يعلنون بها لأمهاتهم قدوم فصل الربيع.

نظر شاعر من بيروت في إحدى الرياض فبدوتُ له فقال عني إنها طرابيش مقلوبة داخلها شراريب سود.

نظرت في الروض تبدو لي شقائقه
اقلب الطرف فيها حُسنَ تقليبِ
حُمرُ الطرابيش لا رَيبٌ وقد قُلبت
إذ كان داخلَها سودُ الشراريبِ[1]

---

(١) ديوان عبد اللطيف فتح الله ص١٠٧ و٦٧٠.

كما شبه شقائقي بكؤوس من ياقوت امتلأت من خمر الندى فقال:

شقائق الروض من نسيج الربيع غدت
تحلو برونقها الزاهي على الزهرِ
كأنها كأس ياقوتٍ وتحملها
كف الزمُردِ إذ تزهو على الدررِ
وحينما امتلأت خمر الندى التصقت
في وَسطِها نقطةٌ من عنبرٍ عطِرِ[1]

---

(١) المصدر السابق نفسه.

وقالت صَبيّرة

وقالت صُبَيرة

كان الصبار (أو الصبير بلهجة البيارتة)، مع التين والجمّيز فاكهة الصيف في بيروت، وفيما كان التين يعبأ بسلال، كان الصبير يوضع في صفائح من التنك.

والصبير نبات تتفرع منه ألواح بيضية الشكل، ينبت فيها أشواك طويلة حديدة الرؤوس، وتحمل في أطرافها العليا أثماراً ذات أوبار كثيرة في قشر غليظ، ينشق عن لب حلو كثير البزر.

ولما كان من طبيعة نبات الصبير أن يتكاثف ويتلاصق وأن تُشَكِل أشواكهُ وسيلةَ حماية، فقد اتخذه المزارعون سياجات لبساتينهم بما كان يقال له رباعات. وكانوا يتركون بين الرباعات ثغرة للمرور.

أشارت الوثائق إلى وجود الصبير في كثير من الأماكن. ولعل أهمها الأرض التي بني عليها مركز صباغ أول شارع الحمراء فقد كانت مملوءةً بالصبير. كما أشارت وثيقة أخرى إلى أن قطعة الأرض كانت تحتوي آجام صبير والأجام الشجر الكثير الملتف والواحدة أَجَمة.

ويبدو أن شجر الصبير كان يزداد ويخرج عن حدود الأرض ويبرز فوق الطرقات، مما دعا المجلس البلدي سنة ١٨٧٩م إلى تقرير وجوب قطع الصبير البارز فوق الطرقات وقد جاء في الإعلان من

ذلك: «بما أن خروج الصبير المغروس في طرف بعض البساتين لأجل سياجها وتقدمه فوق الطرقات العمومية تحدث منه مضرة كلية على المارين لا سيما في الليل. فقد تقرر من طرف الدائرة البلدية لزوم قطع جميع الصبير البارز على الطرقات العامة من طرف أصحابه بمدة خمسة عشر يوماً إعتباراً من تاريخ الإعلان. وبعد مرور هذه المهلة إذا شوهد وجود بعض أشجار صبير خارجة فوق الطرقات كالسابق فيصير قطعها من قبل المجلس ويتحصل من أصحابها مصروف ذلك مع الجزاء النقدي القانوني».

وقالت صنوبرة

وقالت صنوبرة

أَعطيتُ إسمي الفينيقي بيريت، لبيروت، ومعناه بالعربية الصنوبر.

وارتبط إسمي بالآلهة عشتروت. فكرَموني وقدَسوني.

ادعى كثيرون شرف زرع غابتي في بيروت. نسبها بعضهم إلى الأمير فخر الدين المعني الثاني. وقال آخر بل زرعها إبراهيم باشا المصري. وقال ثالث غرست في القرن الرابع عشر الميلادي. ومنهم من نسب ذلك إلى الفرنسيين سنة ١٨٦٠م أو إلى محمود نامي بك محافظ بيروت سنة ١٨٣٢م. فُتِنَ لامرتين بمنظري الجميل فقال: «إن هذه الغابة هي أجمل وأبدع ما وقعت عيناي عليه في حياتي».

أتعبتني الحروب. عندما كان المتحارِبون يقطعون أشجاري ليصنعوا منها مراكبهم وأبراجهم الحربية، ولكنني ثَبتُ. وكانت غابتي تمتد جنوباً حتى الشويفات وحنتوس ومقام الإمام الأوزاعي، وكان يقولون عني «غوابي الجامع» غوابي جمع غابة.

شهدت غابتي أحداثاً ووقائع عديدة. ففي ظلالها عقدت اجتماعات وجرت مفاوضات ومناوشات بين القواد والحكام والجيوش.

قدم أحمد باشا الجزار سنة ١٧٧٢م مع ثلاثمائة مغربي لضبط

الأمن في بيروت، ولدى وصوله إلى غابتي أطلق عليه النار رجل مغربي يقال له أبو عقلين. فأصيب في رقبته وانجرح جرحاً مؤلماً، وأُطلق على مكان الإعتداء هذا إسم ميدان البلشة المشتق من بلاش Blash الأرامية السريانية وتعني ضرب وأوقع في مشكلة أي ابتلى وقاتل.

وكانت تقام في الميدان المشار إليه مباراة للخيل اشتُهر أبطالها بأبطال المرمح، ولعب الجريد. وكانت تقام في هذه الساحة الأراجيح والمقاهي أيام عيدَي الفطر والأضحى بعد أن كانت ساحة عصور (ساحة رياض الصلح) مكاناً لهذه الإحتفالات. وعندما اعتدى القراصنة اليونان على بيروت سنة ١٨٢٦م ونزلوا على شاطىء الغناس ـ الكرنتينا ـ وتسلقوا السور دخلوا المدينة ليلاً وتولى المفتي الشيخ أحمد الأغر تنظيم المقاومة الشعبية، هرع الأمير بشير الشهابي وجيشه لمساعدة المدينة وعسكر في الغابة.

حضر لملاقاته مفتي المدينة الشيخ عبد اللطيف فتح الله وقاضيها الشيخ أحمد الأغر، اللذين انقسما بين مؤيد لدخول الأمير بيروت ومعارض لذلك. وانتهى الأمر بعدم الدخول.

إلا أن هذه الأحداث كلها، لم تفُتُ من عضَدُي، فقد بقيت أوراقي الدقيقة تنتشر لتقوم بتصفية الهواء وإرساله إلى بيروت نقياً نظيفاً، شفاء للصدور وترويحاً للنفوس. وما زالت حباتي تختبىء في كرات تتخلل بين الأوراق، وما زالت قاماتنا ترتفع كأنها عرائس رؤوسها كقباب خضراء تتلاحق متَصلاً بعضها ببعض مُشكِلةً بساطاً سندسياً أخضر.

أَظَلُ أقاوم طوارىءَ الطبيعة ثلاثين سنةٍ، ثم أبدأ بطرح ثماري، ومع ذلك تصعد شجرة الدباء في أسبوعين على جذعي وتقول لي: إن الطريق التي قطعتها أنا في أسبوعين، قطعتها إنتِ في ثلاثين سنة،

ويقال لي شجرة ولك شجرة. فأقول لها: مهلاً حتى تهب رياح الخريف، فإن ثَبتِ لها تم فخرك.

ويعود الفضل بالإهتمام بغابتي في بيروت إلى إبراهيم فخري بك إبن محمود نامي بك، الذي تولى رئاسة المجلس البلدي لبيروت سنة ١٨٧٨م فقام بتنفيذ عدة مشروعات كان من أهمها استصدار قرار من والي سورية ومتصرف بيروت بتكليف بلدية بيروت بغابة الصنوبر التي قدر عدد أشجارها سنة ١٨٧٩م بنحو أربعة ملايين شجرة، فبسطت البلدية فيها مواقع للتنزه، وجلبت إليها المياه، ووضعت على مداخلها حراساً، وركبت في وسطها كشكاً تعزف عليه فرقة موسيقية أيام الجمعة والآحاد والأعياد، فغدت زينة للناظرين وجنة للمتنزهين.

وكان الشيخ أحمد الخضار التونسي قد زار بيروت سنة ١٨٢٥م فدعاه المفتي الشيخ أحمد الأغر إلى نزهة في الغابة بين صنوبراتي وجرت بينهما فيها مناظرة.

قال الشيخ الأغر:

يا دوحةَ الصنوبرِ مِثالك لم أنظرِ
يدوم إن صرت سَما فيك شروق القمرِ

وقال الخضار:

يا دوحة ملأت فؤادي بهجة
والقلب أنساً والخواطر نورا
أضحى بفيك خير موطىء الثرى
فضلاً فما لك لا تميل سرورا

فقال الأغر:

ودوحة في ظلها
قد استظل الناس

فانظر إلى كيزانها
كأنها أجراس

وقال الخضار:

ودوح قد تنظم في ثراه
صنوبره الأغر بلا تشبيه
يجازي حسنه قلبي ولم لا
وشِبهُ الشكلِ منجذبٌ إليه

وقال الأغر:

أشجارنا الخضراء ما
فيها قضيب يابسُ
فانظر إلى قاماتها
كأنها عرائسُ

وقال أيضاً:

يا دوحة الحرش أنتِ الأنسُ والإنسان
لعين بيروت فيكِ نزهة الإنسان
فلا تزالي لأهل الشوق والوجدان
جنات عدن ومأوى الحور والولدان

وبعد حوالي مائة عام من تلك المحاورة التقى شاب بشابة في غابتي واتفقا على موعد بعد سنة ولما عاد الشاب وجد الصبية قد نكثت بوعدها فنظم حليم دموس سنة ١٩٢٤م في هذا الأمر قصيدة بعنوان «في غابة بيروت» ختمها بقوله:

عاشقان التقيا في غابة
وبعيد العام فيها افترقا

هكذا الدهر: لقاء في الهوى

وافتراق بعد ذياك اللقا

يذكر أن جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت أنشأت سنة ١٩٣٠م كلية المقاصد بين الصنوبرات بعد أن كانت قبل إنشائها مدرسة «فيصل الأول الإبتدائية» التي أسست سنة ١٩٢١م.

وقد أوحى جوار صنوبراتي إلى الشاعر عارف أبو شقرا بنظم نشيد المقاصد قال فيه:

في جوار الصنوبر

ضمنا خير معشر

يا رفاقاً على الزمن

اشتروا المجد بالثمن

وعلى نصرة الوطن

فلنجاهد

كما أصدر طلاب الكلية سنة ١٩٤٦م مجلة ثقافية بإسم وحي الصنوبر.

وفي سنة ١٨٩٨م طرحت البلدية للبيع بالمزايدة عدداً من أشجار الصنوبر اليابسة ضمن الحرج البالغ عددها ١١٩ شجرة صغيرة و٧٤ شجرة متوسطة و٧٨ شجرة كبيرة وقد رست الواحدة بأربعة قروش و١٥ بارة.

وفي سنة ١٩٠٠م أعلنت إدارة البلدية «إن التزام الغرف والحطب الذي يحصل من حرج الصنوبر العائد إلى دائرة بلدية بيروت بظرف سنة ٣١١ الحاضرة قد رست على طالبها الأخير بسعر الحِمل من

الغرف خمسة قروش والقنطار من الحطب ثلاثة عشر قرشاً وعشر بارات عملة صاغ وأعطي القرار بتاريخ ١٨ نيسان ٣١٢ فمن له رغبة في ذلك فليراجع بدائرة البلدية بظرف المدة القانونية».

وكانت البلدية تقوم سنوياً بتلزيم غرف الأوراق المتساقطة مني والتي سميت «سيكون» الذي يحرقه أصحاب الفواخير وقد استوفت سنة ١٩١١م سبعين بارة عن كل مائة كيلو.

عرف جل في محلة المصيطبة بإسم «جل السنوبرة»، وعرفت محلة رأس بيروت «بمحلة السنوبرة».

ومن الطريف أن نشير إلى أن أهل بيروت يستعملون عبارة «سنوبر بيروت» بمعنى غابة الصنوبر، وهم يلفظون الصاد سيناً على عادتهم بترقيق الحروف المفخمة وتفخيم الحروف المرققة (يقولون عصور بدل السور (سميت ساحة رياض الصلح ساحة السور لمجاورتها سور المدينة القديم).

ومن أمثالهم عندما يريدون تهديد أحد الأشخاص بفضح أخباره السيئة على الملأ «بدي انشرك على سنوبر بيروت». لأن غابة الصنوبر كانت مقصد البيارتة للنزهة وكان يتم فيها التندر بالأخبار الإجتماعية أي القيل والقال. والعامة تسمي الغابة الحرش بدل الحرج.

وقالت عريشة

وقالت عريشة

سموا شجر العنب بالعريش، وأحدتها العريشة، وأما الدالِية فمولَدة.

زُرعتُ في اليونان، ونموتُ في بيروت وجبل لبنان. روى الجاحظ أنه رأى بَصرياً يخاصم كوفياً في العنب الرازقي والعنب البغدادي، لو كانت الواقعة في لبنان لقلنا مع عمر فاخوري - العنب الزحلي والعنب البحمدوني، أيهما أكرم ثمراً وأطيب نكهة، وألذ طعماً، فتنازع البصريُ والكوفيُ، ثم تواثبا ففقأ الكوفي عين البصري، وخلع البصري كتف الكوفي، ثم رآهما بعد ذلك متصافيين متوادين كأن لم تفقأ عين أحدهما ولم تخلع كتف الآخر.

ورد ذكري في كثير من وثائق بيروت القديمة تارة بلفظ عريشة وطوراً بلفظ «أصل عريش».

وأدركت العامة منافعي، فقالوا: أشهى الفواكه وأجودها غذاء، يُسمن سمناً عظيماً ويصفي الدم ويعدل الأمزجة. وجففوا من ثمري زبيباً لأيام الشتاء. وعصروا منها خلاً لتطييب الطعام، وخمراً لترطيب العقول.

ذكر إبن قيم الجوزية أنني فاكهة مع الفواكه، وقُوتٌ مع الأقوات، وأدمٌ مع الإدام، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة.

وأنني أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه: أنا والرطب والتين.

أدرك القدماء دور عصارتي المخمرة في إنعاش الفؤاد وتفريح القلب، فسميت ديونيوس إلهاً للخمر عند اليونان، وباخوس عند الرومان. وأقاموا لي التماثيل، منها واحد عند مدخل وادي العرايش في زحلة حاملاً عنقوداً من العنب الزحلي.

تقول العامة: أحبُ الأبناءِ إلى الأهل: المريض حتى يشفى، والغايب حتى يعود والصغير حتى يكبر، وقد أحبوا الصغير وشبهوه بآخر حبة من عنقود العنب، فقالوا: آخر العنقود سكر معقود.

وفي أمثالهم: عنقود عنب معلق بالهواء يلي ما بيقدر يطاله بيقول حصرم.

وحكايته نظمها الشاعر بقوله:

حكاية عن ثعلب	قد مر بين العنبِ
وشاهدَ العنقودَ في	لونِ كلون الذهبِ
وآخراً من جنسه	أسود مثل الرطَبِ
والجوع قد أودى به	بعد أذان المغرب
فهم يبغي أكلهُ	منه ولو بالتعب
سعى، فما أمكن أن	يطلع فوق الخشب
فقال: هذا حصرم	رأيته في حلب
قال له العنقود بل	خسئت فاذهب يا غبي
طول لسانِ في الهوا	وقِصرٌ في الذنب



الثعلب والعنب : بريشة فروخ



الفنان فروخ

وقالت فُلة

وقالت فُلة

أنا من قبيلة الياسمين. زهري أبيضُ صغيرٌ مستديرٌ، طيبُ الرائحة، الواحدة مني فلة. زرعني البيارتة في أحواض عند مداخل بيوتهم، فملأت زهراتي البيت في أشهر الصيف برائحتي العطرة.

وقد جرت عادتهم على ضم زهرات مني بجريد النخل الأصفر، وبذلك قال شاعرهم المفتي الشيخ أحمد الأغر:

لـلَـه ضـمـةُ فـل كـالـنـجـوم غـدت
عـنـد إجـتـمـاع الـثـريـا بـلا ريـبِ
فـخـلـتـهـا لـؤلـؤاً رطـبـاً تـجـمـع أو
دراً تـنـظـم فـي سـلـكِ مـن الـذهـب
سـبـحـان خـلاقـهـا ربـي فـلا عـجـبٌ
مـن أمـره إن بـدا نـجـم مـن الـحـطـب
قـد فـاز بـالـطـيـب مـعـطـيـهـا وآخـذهـا
لا شكَ من شَمَها يشفَى من الوصَبِ

ونظم الأغر أيضاً الموال:

من لي بتجليب خاطر منيتي من لي؟
اللي كساني هواه في ثياب ذلي

(أ) قسم عليه بورد الخد والفُل
يرضى علي ويجبر خاطري ولو يوم
ويحكم علي بما يرضيه ويقل لي

وسميت البنات بإسم فُلة تحبباً بي.

ومن النوادر أن ثلاث حسناوات كن يتجولن في أحد الأسواق، فقال خبيث لصديقه بصوت عالٍ: ثلاثة من قرية: التش والفش والخ. . . . فردت إحداهن قائلة بصوت عالٍ أيضاً: ثلاثة من حارة: وردة وفلة وجلنارة.

وقالت قراصية

وقالت قراصية

قيل إن إسمي مقتبسٌ من اليونانية.

وهو يلفظُ أيضاً قراسيا.

أُعرفُ في مصر بخوخ الدب.

شجري دقيقُ الجذع والأغصان.

أحملُ ثمراً كالعنبِ الأسود،

كثيرُ المائية، شديدُ الحُمرة، إذا نضَج أسودٌ، وفيه مزازةٌ بين حموضةٍ وحلاوة.

أقمعُ الغثيانَ والعطش، أقطعُ السُعال، وأفتتُ الحصى.

روي أن أحد السلاطين تمنى خلال شهر رمضان لو تتصدر حبَاتٌ مني على مائدة إفطاره. وفوجىء السلطان عندما جلس للإفطار عندما رآني على مائدته، وبسؤال الوزير علم أن الحمام الزاجل حملني من دمشق إلى القاهرة.

وليس غريباً أن يتغنى بي الشعراءُ والمطربون.

فشاعت قديماً أغنية القراصيا والتي قام صباح فخري بتجديدها.

وتقول كلماتها كما دونتها المرحومة منيرة عبد الغني رمضان (١٨٧٣ ـ ١٩٦١م).

يا عيني طعماني القراصية يا عيني طعميته القراصية

دور

القراصية منين منين سقانيها بدمع العين
والقلب ما يهوى شخصين إلا واحدة شلبية

دور

عندي طيرا يا أخواتي تفهم على ملاغاتي
بالليل تراضي حرداتي بالنهار تغضب علي

وفي صيغة أخرى للقراسية (بياتي):

يا عيني طعماني القراسية يا سيدي طعماني القراسية
الأراسية منين ومنين وجيبوها دوا للعين
وأنا قلبي ما يهوى اتنين إلا واحدة شامية

* * *

الأراسية بعشر قروش واللي اشتراها مش مغشوش
والمشمش دنا ما حبوش وحبيبي نور عينيا

* * *

الأراسية بمجيدي وأنا بحبك يا سيدي
بالليل تسمع تنهيدي على واحده مصريه

* * *

الأراسية بميت ريال على بعدك ما لي حال
واللّه لاكتب عرض حال للدايرة البلدية

وقالتْ قرنفُلة

وقالت قرنفلة

أنا أفضل الأفاوية وأذكاها.

العامة تسميني كبش قرنفل.

مني زهر ويسمى الذكر، ومني ثمر ويسمى الأنثى وزهره أذكى.

زهري أحمر أحياناً وحيناً أبيض.

أمكنُ الصائم في شهر رمضان من الصبر على الصيام، فيقوي احتمالَه شَمُّ حباتي المشكولة على باذنجانة.

ذكرني امرؤ القيس في معلقته بالبيت القائل:

إذا قـامـتـا يَـضـوعُ الـمـسـك مـنـهـمـا
نـسـيـم الـصَبـا جـاءت بـريـا الـقـرنـفـل

أزهرتُ في روضة ببيروت فقال المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله:

فـي الـروض قـد أزهـرت قـرنفلـةٌ
حـمـراءُ لـلـقـلـب تـجـلـب الـفَـرَحـا

كـأنـهـا جـمـرةٌ بـمـجـمـرةٍ
مـن الـزَمـرَدِ عـطـرُهـا نـفـحـا

وقال في زهري الأبيض:

بِيضُ القرنفل الذي
لـه الزهور أعبدُ
أعطارها إذ نفحت
في غيرها تزهد
كأنها جواهرٌ
أصدافها زمرد

وقال في قرنفلة حمراء:

بين الأزاهر قد لاحت قرنفلة
حمراء قد نشرت من عرفها عطرا
كأنها ملكٌ في خضرِ أرديةٍ
وتاجه أحمرٌ، كرسيه خضرا

ولا يزال المخضرمون يذكرون القرنفلة البيضاء التي كان الرئيس صائب سلام يزين بها عروة سترته.

وقرنفل شهرة أسرة من الأسر الإسلامية في بيروت. برز منهم مصباح قرنفل عضو لجنة أخذ العسكر في ولاية بيروت. وحسن قرنفل عضو غرفة تجارة بيروت سنة ١٩١٤م وسامي قرنفل سفير لبنان السابق لدى منظمة الأونيسكو.

إمتهن بعض أبنائهم التجارة وكان أحد خانات بيروت القديمة يعرف بخان قرنفل. فقد ذكر الأمير حيدر الشهابي في تاريخه أنه في سنة ١٨٠٠م مر أناس قرب بعلبك فنظروا إلى حفرة في الأرض فظنوا أن فيها كنزاً. فحفروا في المكان ووجدوا مغارة منقورة في الحجر وفيها نواويس طول الواحد أربعة أذرع ونصف، وجدوا داخلها خواتم

ذهبية. ثم وجدوا نواويس من رصاص، فباعوا الرصاص إلى المكارية الرطل بثلاثين فضة، وهؤلاء باعوه إلى عبد القادر قرنفل بستين فضة، وهذا الأخير باعه إلى مركب إفرنج الرطل بخمسة قروش..

ومن أبنائهم الشيخ عبد الهادي قرنفل الذي تولى منصب القاضي الشرعي لبيروت على الأقل منذ سنة ١٢١١هـ وحتى سنة ١٢١٩هـ ومن مَبَرَاته وقُفه أشجاراً في أرضه بحي عين الباشورة على مصالح الجامع العمري الكبير، كما وقف قطعتي أرض فيهما أشجار توت وزيتون مثالثة: الثلث لزاوية المجذوب، والثلث لزاوية الحمراء الكائنة داخل المدينة قرب الجامع العمري الكبير، والثلث الثالث للجامع العمري. وقد عرف مصطفى قرنفل ابن الشيخ عبد الهادي بعد ذلك كأحد كتبة المحكمة الشرعية في بيروت.

ومن زغاريد البيارتة:

بلوا القرنفل بله
ولا تستحوا من بله
بوجود أمك وأبوك
بيكمل الفرح كله

واختار البعض قرنفلة إسماً لبناتهم.

وقالت كينَة

وقالت كِينَة

موطني الأصلي في استراليا وقيلَ إن إسمي اشتُقَ من لغة بيرو القديمة بالفرنسية أُدعى **quin quina**،

وبالإنكليزية **cinchona**

وباللاتينية **Eucalyptus**.

أُدخِلَت أنواع من أشجاري إلى أوروبا وبلدان البحر المتوسط ومن هذه الأخيرة لبنان والمغرب. اكتشف السكان إمتصاصي لكمية كبيرة من المياه، فزرعوني في المستنقعات لتجفيفها. وتبين لهم أنني دائمة الخضرة وأن ارتفاع الشجرة مني قد يتجاوز ستين متراً.

زُرِعَت عدة شجرات مني في طرابلس وبيروت منذ العهد التركي. من شجراتِ بيروت: واحدة معمرة يقال إن زارعها هو الرسام داود قرم جد الوزير جورج قرم في حديقة بيته المواجه لدار عبد اللطيف فاخوري[١] ولا تزال قائمة وهي بحاجة لأكثر من شخصين ممتدي الأذرع ليحوطاها. وعدة شجرات باسقات في أوتوستراد الدورة، ومثلها في الشارع الممتد بين مستديرتي الكولا وأبي شهلا، وفي شارع الماما.

وفي حديقة الصنائع أشجار مني تفيَأها الأديب الدكتور أحمد عبلي. وأحصاها فبلغت أربعينَ شجرة عريضة الساق، ساقطة الجذع،

---

(١) جد مؤلف هذا الكتاب.

ممتدة الأغصان وإلى جانبها شجيرات كينا تناهز العشر.

وقد تكرم الدكتور أحمد وحكى قصة إكتشاف منافعي، من أن فريقاً من الرحالة كان يطوف في أدغال افريقيا، عندما أصابته حمى الملاريا قرب مجرى ماء نبتت عنده بعض أشجار مني، فغسل وجهه وشرب من الماء، ثم دبَ فيه النشاط واستعاد عافيته، واكتشف فيَ دواء لحمى الملاريا.

يقول الناس رُبَ ضارةٍ نافعة، ولو عُرِفتُ أيام المتنبي، لما نظم قصيدته في وصف الحمى.

وكان آخر من أنقذتهم من الحمى الدكتور محمد وهبي القريملي الذي أصيب بالملاريا في السنغال وانقَذتُه حباتٌ مصنعة من لحائي، قال:

يا من رأى القر يملي في بيروت ملكاً
هل تعلم كيف أمسى بعد أن اغترب
داهمته الملاريا بشراسةٍ وهي قاتلة
ونادت أخاها الموت فجاء واقترب
فنظر إليهما باحتقار صارخاً من
تريدانه أمام الكوارث يوماً ما هرب
فسبحان الذي وهبه الحكمة والصبر
والعقل والرؤيا والكثير مما وهب
فالدهر غادر جائر ظالم لئيم كالإنسان
يعبث بالخلائق كلهم وكأنهم لعب
فالقر يملي هو هو لا يتبدل مطلقاً
سواء لديه هل افتقر ومهما اكتسب
هل هذه صرخة محتضر في السنغال
أم هي ومضة من عالم الشعر والأدب

وقالت لوزة

وقالت لوزة

ذكرني الطبيب داود الأنطاكي في تذكرته بأن مني برياً وبستانياً، إما حلو وإما مر، ورقيق أو غليظ يكسر.

وذكر كذلك أنني أقطع السعال المزمن وإن ملازمتي مع السكر تسمن وتحفظ القوى وتصلح الكلى.

وأشار إلى أن بعض ثمري كالخيار معوج يستعمل رطباً يسمى في بلاد الشام العقابية. أطلقت عامة بيروت على هذا المعوج لقب «عوجا» كان الباعة ينادون بها في أحياء المدينة.

وعندما تصاعدت النقمة على السلطة أواخر العهد العثماني، شاعت التورية «عوجا من اسطنبول».

عرفت بيروت القديمة عدة أشجار مني، ولا سيما في مزرعة رأس بيروت، في بورة مصطفى الفر قرب خروبة المعقصة، وفي أرض الحاج حسين الصليب في محلة المغاريق، وفي أرض الشعفورية وفي كرم الطرابلسي.

وقد لَحَظَت الأغاني الشعبية قيمتي الغذائية إذا أكلِتُ مع السكر، فقالت أغنية بعنوان «عريبي» وهي تصغير إسم عربية تقول:

عـــريـــــبـــــي يـــا عـــريـــــبـــــي

ربـــيـــتـــك ســـنـــة وأربـــع شـــهـــور

عـالـلـوز والـسـكـر ولـحـم طـيـور

يـــا غـــطـــاس أغـــطـــس وعـــوم

وجيب عريبي من جوا سبع بحور

يذكر أن حركة النهوض والتنوير، ظهرت أواخر القرن التاسع عشر في بيروت من خلال الإشادة بتراث العرب وحضارتهم وكنوا عن ذلك بتلك الأغنية ويريدون أن يقولوا أن البنت الصغيرة عصت أمر أمها وخرجت من دارها فغرقت وأكلت السمكة أعضاءها عضواً عضواً.

وعندما تدلل الأم وليدها تفخر بأنها ربته وأطعمته اللوز والسكر.

وقالوا في بعض الأغاني: البنت الشلبية عيونها لوزية.

وأدخلتني العامة في أمثالها وقد لاحظوا أوان خروج زهري وانعقاد ثمري فقالوا: مثل شجر اللوز، أول ما بيزهر، وآخر ما بيطعم.

ووصفوني بالحمق لظهور زهري في وقت مبكر من الشتاء فقالوا: يا لوز يا مجنون، بتزهر بكانون؟

وشُبه بي الترمس، فكان بائع الترمس ينادي: ترمس يا حلو يا ترمس، أحلى من اللوز يا ترمس. ويضيف المثل: هذا الكلام يسلك على الأولاد الصغار، أو هو ضحك عليهم.

وقالت ليمونة

تجدني في ذاكرة القاطن والعابر سواء، على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، من جنوب يافا في فلسطين، إلى شمال طرابلس في لبنان.

فالرائحة الزكية التي تنتشر من أزهاري، تعبق الأجواء. وتجمع إلى أريجها، طهر بياضها الناصع، بين أوراق خضراء زُمردية، تتخللها حبَاتٌ مني ذهبية صفراء أو برتقالية أو مُشَرَبة بحُمرة، يتلاعب بها الهواء، فتظهر وتغيب، كالقمر في ليلة غائمة، فتبدو كلوحة من التجليات الإلهية.

تملأ ثماري الأسواق والدكاكين، منها ما ينفع للصدر، ومنها ما يداوي المعدة، ومنها ما يضفي على الطعام نكهةً مميزة.

يضاف قليل من الماء إلى أزهاري، ثم يُقطر ويعبأ في زجاجات، ويُهدَى إلى الأحبة. فتنعش قطراتٌ منه النفوس في ليالي الصيف الرطبة.

وتمدُ قشور أثماري المجففة، جمر كانون الشتاء، برائحة منعشة.

ولا عجب إن ترنمت الأطيار، متنقلة من شجرة إلى شجرة، نشوى من أريج أزهاري، غير عابئة بنقيق الضفادع، ولا بنعيق البوم والغربان.

قلما خلت جنينة أو كرم في بيروت من بعض شجراتي، قبل أن تقتلع ويحل الباطون محلها.

وقد كثر قديماً إنتاجي من الجنس الحامض وهو ما يسمى في طرابلس الشام بالمروكبي (لأنه كان يحمل بالمراكب) على عادتهم باستعمال الواو في ألفاظهم على طريقة السريان، حتى رخُص سعره، وعُير من يهدي منه بقولهم: هدية المقرف ليمونة حامضة. يذكر أن الشيخ محمد النصري أرسل إلى المفتي عبد اللطيف فتح الله هدية من الليمون الطرابلسي مع بيتين هما:

وبالقبول ما أهديه جُد كرماً
فالعفو منك عن الأحباب مضمونُ
ودع لما قيل في الأمثال من قدم
هديةُ المقرِف المسكينِ ليمون

فأجابه المفتي قائلاً:

أهديتني منك ليموناً شفيتُ به
وزال داء بقلب الصب مدفونُ
من كل ليمونة قد خلتها كرةً
من عسجدٍ لم يكن يحصيه تثمين
أو بدرة من نضار صُرَ في ذهبٍ
أو بدر أفق له بالنور تزيين
أسنى الهدية ليمون حبيت به
مقداره من بحور الجود مضنون
وإنني مرسل في ذلكم مثلاً:
هدية المحسن المناح ليمون

وإن شكري لها شكرٌ لمانحها

وشكر مانحها فرضٌ ومسنون

لا زلت بحر ندى يُهدي جواهَرهُ

فضلاً، وما الدرُ إلا فيه مخزون

وقيل إن الحامض هو النارنج قال المفتي المذكور فيه:

يا حسن نارنجةٍ قد زانها ثمرٌ

وقد زهت وهي تبدي أحسن العجبِ

فإنها كسماء من زُمرُدة

منها تدلت علينا أنجم الذهب

وقال فيها أيضاً:

يا حسن نارنجة قد أزهرت وزهت

وفوقها ثمرٌ يحلو به الورقُ

وقد غدت، وهي تزهو من زمردة

وحملها الذهبُ الإبريزُ والَورِقُ

شبَهت العامة معاشرة بعض الأفراد بالليمون الحلو، فقالوا: عشرتك مثل الليمون الحلو، أوله حلوٌ وآخره مر.

وشبهوا وجه المريض بلوني فقال: وجههُ أصفر مثل الليمونة.

وكان البيارتة ينتظرون نضج نوع مني يسمى أبو صفير، كي يطيبوا به صحن الفول. ويطبخوا أكلة اشتُهرت لديهم بالأرنبية.



بريشة الخطّاط : نسيب مكارم



نسيب مكارم

وقالت مشمشة

وقالت مشمشة

شجري يعلو حتى يقارب شجر الجوز، مني مرّ صغار يعرف بالكلابي. أو حلو يسمى اللوزي. وهذا النوع منه كبار كثير المائية، ومنه شديد الحلاوة وبزره مفروق في ظاهره ويعرف بالخراساني. ومنه صغير قليل الماء يسمى الصيني.

ويفضل البيارتة نوعاً يدعونه أم حسين، يعقد تحت النار ليغدو مُربى لذيذ الطعم. ثمري نافع للعطش، فاتح للسدد، معدل للأمزجة. إذا طبخت أجزاء من شجرتي وطبخت، أدرت. ويقطع ورقي الإسهال.

وكان البيارتة يستقدمون من دمشق قمر الدين المصنوع من عصير حبات مني، تنقع وتصفى من النوى، وتفرش على ألواح مدهونة بالشيرج في الشمس وترقق وتجفف، فتؤكل كحلوى. أو تذوب في الماء فتصبح شراباً سائغاً. كانوا يتناولونه غالباً عند الإفطار في شهر رمضان.

ولما كان يجفف بشكل مستدير كالقمر، وكان يكثر استهلاكه في شهر رمضان، الذي هو شهر الدين، فسميت: قمر الدين.

وكان الشيخ حسن حفيد العارف الشيخ عبد الغني النابلسي قد

أهدى سنة ١٨١٥م للمفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله شيئاً من القمر الدين فأجابه المفتي:

أهـديـنـي قـمـر الـديـن الـذي شُـفـيـت
أوصـاب قـلـبٍ بـه إذ كـان مـنـفـطـرا
وإنـك الـشـمـس فـضـلاً ثـم مـعـرفـة
لا غـرو لـلـشـمـس أن تـهـدي لـي الـقـمـرا

وقد ذاعت شهرة شجرتي مشمش: واحدة شهدت مولد الأديب عمر فاخوري كما كتب عنها في كتابه «أديب في السوق». والثانية كتب تحت ظلالها الأديب أحمد علبي قطعة من طرفه الجميلة في كتابه «بالأحضان يا بلدنا».

وشبهوا الضعيف قليل الحيلة الذي يتعرض للمضايقة من أي شخص، بشجرة مشمش مزروعة في الطريق يهزها الرائح والغادي.

وقالت مِقساسَة

وقالت مقساسة

شجري كبير يحمل حباً مستديراً فيه مادة تميل إلى الحلاوة. يُعمل منه الدَبَق عن طريق مقَ الحب أي إمتصاص لبه ورمي قشره ونواه.

وشجرتي كانت محببة لدى أهالي رأس بيروت، لأنها كانت تمدهم بعصارتها لصنع، الدبق الذين كانوا يصطادون به العصافير.

واشتهرت في رأس بيروت عدة شجرات من جنسي. منها واحدة سميت «الزبورة» في أرض المختار جرجي نقولا ربيز في محلة طنطاس (المكحول). ومنها مقساسة نظير البابور (العيتاني) في الحمراء. ومقساسة عبد الفتاح شهاب في الحمراء. ومقساسة حنا حبيب ربيز في الوردية. ومقساسة عبد الله فضول ربيز في الحمراء.

وسميت هذه الأخيرة مقساسة عزرائيل. وتناقلت العامة ذكر شجرة مقساس في شارع الحمراء (تجاه موقع مقهى الويمبي) وقيل إنها مسكونة بالأرواح الخيرة وإن هذه الأرواح كانت تحضر على بعض الناس أحياناً، وكانوا كثيراً ما يسمعون غناء هذه الأرواح وألحانها. كما كثر شجر المقساس في الوادي أو الوطى أي شارع التنوخيين.

حَدَدَت إحدى شجراتي الحدود الفاصلة بين قطعة أرض وأخرى، بينما اعتُبرت شجرة الزنزلخت الحد الآخر، ففي وثيقة

مؤرخة في ٢٠ شوال ١٢٦٣هـ باعت بربارة جرجس الموراني حرمة فرنسيس الشوشاني إلى بنتها مريم قطعة من بستان الموراني «حدها من أصل المقساس التابع لها لجهة القبلة إلى أصل الزنزلخت الواقع لجهة الشمال. . .».

روى الحاج عمر غزيري للمختار كمال ربيز كيفية صناعة الدبق. قال: يجري قطف ثمار المقساس وهو على أشكال عناقيد العنب، ويؤتى بها إلى حيث أعد التيغار (وهو وعاء) ثم يبدأ مق الحبوب وإفراغ العصارة في التيغار، من جوال يخمسة كيلوغرامات من الثمار، ثم يصنع الدبق العسلي أو الدبسي.

في العسلي يتمُ خفقُ الثمار لاستخراج البذور، ثم يضاف إليها كيلوغرامان من شراب الرمان الحلو مع مادة الغليسيرين، ويضاف إليه ملعقة كبيرة من الزرنيخ وملعقة صغيرة من النيلة، ثم يخفق الجميع مع الماء، ثم يؤتى، بقصبة ربطت بها جرزات (حزمات) من قضبان الزيتون كل خمسة قضبان جرزة، يتم مزجها بالدبق عدة مرات ولعدة أيام وتعلق في حرارة الشمس. والدبق الدبسي يضاف إليه كيلوغرام من الدبس عوض شراب الرمان. كان إنتاج الدبق رائجاً ويؤمن الصيد به أرباحاً كبيرة لا يقل عن ليرتين ذهبيتين يومياً.

يذكر أنه بتاريخ ١٦/ ١١/ ١٩٢٠م صدر القرار رقم ١٣٥ وفيه: ١) محظور قطعياً استعمال الدبق واصطناعه وبيعه ومشتراه ونقله وشحنه وضبطه في كل أراضي حكومة لبنان الكبير. ٢) كل من يخالف يتعرض لجزاء نقدي من ٥٠٠ إلى خمسة آلاف غرش. وقد اشتُهر نوع من العنب سُمي المقساسي، نُسِب إلي لأن ثمره يشبه ثمري.

وقالت مَنثُورَة

وقالت مَنثُورَة

زهري ذكي الرائحة. واحدتي منثورة والعامة تلفظها بالتاء: منتورة. لي ساق طويلة خضراء طويلة. برأسها زهر أصفر أو أحمر. يكون تنويري في الشتاء. ومع أن أزهاري مضمومة فقد سميت منثورة.

عُرِفتُ في بيروت منذ القدم. قال في المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله:

إيا حبذا المنثور في الروض والربى
يسلي بمرآه عن الهم مهموما
تنظم منه الزهر فوق غصونه
تأمل، ترى المنثور ـ لا شك مضموما

وقال في روضٍ ضمني مع أزهاري:

وروض به الأزهار بين منظم
وآخر منتور ـ به صرت مسرورا
ففيه أرى المنثور يبدو منظما
وفيه أرى المنظم ـ لا شك ـ منتورا

ومن أشكالي ما يسمى مضعف المنثور، شبَه الشاعرُ المذكور زهرة منه كلعس الشفاه فقال:

ومضعف المنثور إن يك أحمرا

يبدو بوجه في العيون جميل

كما شمت منه زهرة وكأنها

لعس الشفاه تضم للتقبيل

أما الشاعر عمر الأنسي فقد جمعني مع الورد و الريحان بأني خد الحبيب وثغره وعِذَاره فقال:

أفدي الذي وافى إلي بباقة

من روض حسن أينعت أزهارُهُ

فالورد والمنثور مع ريحانها

خد الحبيب وثغره وعِذَارهُ

فلا عجب إن سمَى البعض بناتهم منتورة.

وقالت نخلة

بإذن من المؤلف لجمعية تراث بيروت

وقالت نخلة

حرص الأجداد والآباء في بيروت على غرسي في حدائق دورهم تيمُناً بالحديث الشريف: أكرموا النخلة. وهو تقليد مستقر في لا وعيهم، وبقي في ذاكرتهم منذ أن قدموا من جزيرة العرب.

وقد اعتبرتُ في بلاد عديدة شجرةً مقدسة تكرس وتنذر للآلهة. والمتواتر أني من شجر الجنة، صنعتُ من بضعة من طين بقيت بعد تكوين آدم، فلقبت بعمة البشر.

تفيأ البدوي في ظلي من هجير الصحراء ورمضائها.

جذوري تضرب في الأرض. وقامتي تنتصب في عنان السماء بجذعها الشامخ وأوراقها الزاهية. واعتبرتُ رمزاً للتجدد والشباب ونسغ الحياة الذي لا ينضب.

وفي الأثر أن آدم هبط من الجنة بثلاثة أشياء كان منها العجوة فسميت سيدة ثمار الدنيا.

حمل عبد الرحمن الأول الداخل نخلة إلى الأندلس وزرعها في قصره، متذكراً من خلالها غربته التي شابهت غربة النخلة فقال:

يا نخلُ أنتِ غريبة مثلي

في الغرب نائية عن الأصل

فـابـكــي، وهــل تــبـكــي مُـكـبـسـة
عـجـمـاء لـم تُـطـبـع عـلـى خـبـل

ولكثرة ما زرع في إحدى محلات رأس بيروت من النخل، أطلق عليها إسم محلة جب النخل.

ذكر العلامة الفرنسي بيرار أن الفينيقيين أتخذوني شعاراً لهم، مع أنني على ما يقوله العلامة المذكور لم أكن نباتاً أصلياً في فينقية وإنما أنا نبت منقول.

ذكرني إخوان الصفا في رسالتهم من الجسمانيات الطبيعيات، فقالوا: «إن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، والنخل آخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية، وذلك أن النخل نبات حيواني، لأن بعض أحواله مباين لأحوال النبات، وإن كان جسمه نباتاً؟ فأشخاص الفحولة منه مباينة لأشخاص الإناث، ولأشخاص الفحولة لقاحٌ في إناثها كما يكون في الحيوان. فالنخل إذا قطعت رؤوسها جفت وبطل نموُها ونشوؤها وماتت. وكل ذلك موجود في الحيوان، وهكذا فالنخل نباتي بالجسم، حيواني بالنفس، إذ كانت أفعاله أفعال النفس الحيوانية، وشكل جسمه شكل النبات».

وأدخلت في تقاليد البيارتة وعاداتهم المتوارثة. فقلما خلا بيت من بيوتهم من شجرة مني تنتصب وسط حدائقهم. وكانوا عندما يحين أوان تذكيري، يقرأون سيرة المولد النبوي، ويتذكرون مريم العذراء التي جاءها المخاض إلى جذع نخلة بيت لحم وولدت كلمة الله وروحه المسيح عليه السلام، فتقوت في نفاسها بالرطب الجني. كما اعتاد الحاج منهم، أن يجلب معه بعد عودته من أداء فريضة الحج،



كمية من عجوي، وكان بعض المهنئين يتناول واحدة منها ويأكلها ثم يضع نواتها في محفظته تبركاً.

وقد رغبوا بنوع من رطبي يسمى الزغلولي يتميز بطول حباته وحلاوته، تغنت به المطربة صباح.

وأُدخِلتُ في حلويات الأعياد عند البيارتة، فيما كان يسمى لديهم المقروض ـ المقروضة ـ ولعلها قدمت إليهم من تونس. فقد ذكرها إبن أبي دينار ونسب إلى من قدمت له قوله: كيف ينام المرء وفي بيته المقروض.

وكيفية صنعها بأن تُمد عجينة من السميد، وتقطع بشكل معينات (متوازي الأضلاع) وتطبخ بالفرن أو تقلى بالسمن ـ ويضاف إليها القطر. وسميت بالمقروض لأن ما يزيد من السميد حول طرف الصينية يقطع بالمقراض.

تعرَضت شتلاتٌ من أشجاري في أحد بساتين رأس بيروت إلى محاولة قطعها من قبل الجنود الفرنسيين، فدافعت عني مالكة البستان الحاجة شاتيلا التي أمسكت بيد الضابط وأخذت تدله على نخلاتها واحدة واحدة قائلة مسيو، مسيو، (تقصد الذكور من النخلات) إلى أن وصلت إلى واحدة قالت عنها: مدام، فامتنع الجنود عند ذلك عن قطع النخلات.

لقبت العامة طويل القامة بالنخلة. وأطلقوا الإسم أيضاً على أبنائهم وإن لم يتفق الإسم والشكل أحياناً.

وقالت نرجسة

وقالت نرجسة

أسهر طول الليل، فلا تطرف أحداقي.

وصفوني فقالوا:

ياقوت أصفر،

بين در أبيض،

على زمردٍ أخضر.

من شمني ذهب عنه البرد.

ومن ادهن بزيتي ذهب عنه الألم.

فُسميتُ نرجسَ الدواء.

مدحني أبو نواس، وأشاد إبن الرومي بفضلي.

حملوني وزر من أحبَ نفسه، فنسبوه إليَ وقالوا نرجسيٌ. وذلك منذ أن رأى نرسيس صورة نفسه على صفحة الماء وأعجب بها.

وأذكر أيضاً أن مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله شبهني بعيون الملاح فقال:

يـا حـبـذا الـنـرجـس مـن حـسـنـه

فـاق عـلـى الـورد وزهـر الأقـاح

يـا شـرف الـنـرجـس، يـا فـخـره

إذا شـبـهـت فـيـه عـيـون الـمـلاح

كما شبهني بشمس فوق أهله فقال:

ويـا زهـرة مـن نـرجسَ شـمـمـتـهـا زهـت

وقـد نـفـحـت فـي الـروض أعـطـر نـفـحـةِ

فـأصـفـرهـا مـن فـوق أبـيـضـهـا إذا

نـظـرت فـشـمـس فـوق خـمـس أهـلـة

وفي سجل أسرتي أن أغنية شاعت في القرن التاسع عشر نظم أهل التصوف على منوالها كانت بعنوان «العيون النرجسية» لحنها أحمد أبو خليل القباني ومطلعها:

الـعـيـون الـنـرجـسـيـة   تورث القلب السقام

والـثـنـايـا الـلـؤلـؤيـة   زانـهـا حـسـن ابـتـسـام

وأذكر أن أمين آغا رمضان أهدى مفتي بيروت الشيخ أحمد الأغر باقةً من زهري فقال المفتي:

يـا حُـسـنَ غـصـنِ نـرجـسِ

عـنـا بـه الـحـزنُ ذَهـب

كـسـاعـدٍ زبـرجـدي

كـفـه قـد اضـطـرب

يـحـمـل صـفـحـاً مـن لـجـيـنِ

فـيـه كـاس مـن ذهـب

قال إبن الوردي في لاميته التي كانت تُدرَس في بيروت في القرن التاسع عشر:

إنـــمــا الـــورد مـــن الـــشـــوك ومــا
يـــنـــبـــت الـــنـــرجـــسُ إلا مـــن بـــصـــل

ومن أحبَني سمي إبنته نرجس.

وقالت وَردَة

وقالت وَردة

ولدتُ في برعم. فتحتُ عينيَ، ونظرتُ من حولي. وجدتُ نفسي وسط غابةٍ من الشوك فشعرتُ بالوحدة.

عليَ أن أصبرَ على مجاورة الشوك،

وقد علمتني أمي:

أنني وحدي التي تُقصَدُ وتُقَبَلُ وتُشَم.

وأوصتني:

بأنه إذا امتدت إليك كفُ عاشق،

فاجعلي الوخز قصاصاً موجعاً، قبل أن تستسلمي له.

فقد يكون ذاهباً إلى لقاء حبيبة، ويريد أن يقدمك لها عربون محبة ووفاء.

وعندما تبدأ أذيال الليل بالإنسحاب، وتتسلُل شمسِ الصباح إلى الربى، أشعر بالعطر الحبيس يتململُ في صدري، ويفيضُ من حولي، فتتزاحمُ الفراشات وعرائسُ النحل ناهلةً إكسير حياتها وسِرَ وجودها.

وبقدر ما تُسر بالأخذ، أشعر بلذة العطاء، وكلي ثقة بأن في عطائي، شفاءً للمريض، وقوةً للضعيف، وأنساً للحزين، وسلواناً للنفوس.

وكما غفرتُ لحبيب أهداني إلى حبيبته، سامحتُ من ضمني وأخواتي، ليجعل منا عصارةً تنعش القلوبَ والأفئدة.

وبدل أن أذبلَ وحدي وسط هذا الشوك. أحلُم بأن أذبلَ وأغفو على صدرِ عذراءَ أو على مخدة حسناء، كي تبقى بقايا عطري مُضمخة ضلوعها.

هل أنا جميلة؟

الشوكة بجواري تدعي الجمال أيضاً.

هل أنا مفيدة؟

قد تكون للشوكة فائدة كبيرة لا أدركها.

قيل المعاصرة توجب المنافرة، وأنا أقول المعاصرة توجب المنافسة.

أأنا الضعيفة وهي القوية؟

مسألة فيها نظر.

لأن الضعيف منبوذ، وأنا مطلوبة.

وهي قوية ولكنها مرهوبة، ومكروهة.

وهل الحب والكراهية إلا توأمان، منفصلان ومتحدان معاً.

كرة من نصفين، يكمل كل نصف منها النصف الآخر.

كالموت والحياة.

والليل والنهار،

والظلمة والنور،

والأرض والسماء.

وكل ما عدا ذلك هباء في هباء.

تغزل الشعراء بجمالي وذكاء رائحتي. كنُوا وَجنَةَ العاشق ووَجنَة المعشوق بوردتين، وفي ذلك قال الشاعر[1]:

بكف حبيبي وردتان تبدتا
فصفراء وحمراء بظن وتحقيق
فقال لي: الصفراء وجنة عاشقي
وقلت له: والحمراء وجنة معشوقي

وفي خد الجميلة قال في موال له:

حوراء بنت الجمال قلب الشجي حلت
والموت في عشقها للصب قد حلت
كم زينت سربها بالحسن، كم حلت
في خدها الورد في أعلاه مسك الخال
لو أنها أوجدت حين الزمان الخال
ما كان من قد مضى من عشقها بالخال
وخمره الوصل قد كانت لهم حلت

كما وصف باقة مني قائلاً:

وباقة وردٍ يدهش العقَل نَظمُها
على حسن جمع محكم الضبطِ والربطِ

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله.

فيا حسنها، كادت تضيء كأنها

شموس وأقمار تَنظمن في سِمط

وعبر الشاعر المذكور عن شكواي عندما كانوا يقطرون مني ما عرفوه بماء الورد، فقال:

الورد قد قال إذ قمنا نقطره

ما بالكم تأخذون النفس والنفسا

غيري حبيبٌ لكم تعطونه مهجاً

ودام يلحقني منكم أذىً وأسى

ولما كان زرُ الورد مني لا تنتشر رائحته إلى أن يتفتح، شبهه شاعر بيروت أبو الحسن قاسم الكستي بالظبي الصغير فقال:

سألت ظبياً صغيراً شم وجنته

فمال عني حياءً وانثنى مرحا

وقال ليس لزر الوردِ رائحةٌ

فاصبر إلى أن يصيرَ الزرُ منفتحا

وأدرك ملحن بيروت نقولا المني جمال واحدة منا على غصنها فقارن بين حياتها وحياة الشباب، ونظم أغنية ولحنها:

لازم في الحب يكون في سر

يا خسارة الزهرة لما تهر

مين يتناول ويلمها

ويحن عليها ويشمها

كانت حلوة على أمها

هيك نتيجة شبابي

وغنى داود قرانوح منولوج من نظمه:

فتحت يا ورد على الأغصان من غير أوانك
ونا اللي فت أهلي، والكل على شانك
لشفتك عشقتك، وشفت كل أشجانك
إسمح بوصلك وداوي القلب في قربك
وصون حبيبك، وزول كل أحزانك

وقد عبرت المطربة فيروز عن أهمية الورد التي أهداها الحبيب إلى حبيبته:

هديتني ورده
خبأتها بتيابي
ورجيتا لصحابي

وغنت أسمهان يا بدع الورد يا جماله. وغنى محمد عبد الوهاب يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك.

وحق لي أن أفتخر وقد سَمُوني ملكة الجناين. واعتبرني الشيخ عبد اللطيف فتح الله سلطان الأزهار فقال:

يا شرف الورد ويا فخره
إذ شبَهوا فيه خُدودَ الحِسان
فصيروا الورد على ضعفه
للزهرِ سلطاناً بكل الزمان

وشرب العليقُ بفضلي فقالوا: على حجة الورد بيشرب العليق.

ولما لم يجدوا عيباً في قالوا في الأمثال: ما لقوا بالورد عيب قالوا أحمر الخدين.

ونظم الفنان يحيي اللبابيدي ولحن أغنية قال فيها:

يا مَدَام

يا وردة في بستان

أنا مغرم من زمان

دماتِك على قلبي خفاف

لولاكي عمره ما انشاف

في الدنيا لطف وإحسان

يا مدام

وليس غريباً أن تسمى الجميلة وردة أو جورية نسبة إلى نوع مني يسمى الورد الجوري، وشبهوا خدود الحسناء بي فقال الشاعر الشعبي:

عــاهــالــقــامــة مــا شــا الــلَــه

وخــــــدودِك ورد الـــــجـــــوري

تــخــمــيــن إنــتــي شــغــل الــلَــه

ونــحــنــا شــغــل الــفــاخــوري

وقالت ياسمينة

وقالت ياسمينة

أنا زين الرياض والموسوم في الوجه بالبياض.

وقد وردَ أن البياضَ هو شطرُ الحسن.

وفي الحديث أن قارىءَ القرآن يؤتى بياسمين الجنة في قبره.

زرعوني على أسوارِ حدائق البيوت، وما أن تميل الشمس إلى الغروب حتى تتفتح زهراتي وينتشر عِطَري بين الدروب، وتُضمُ زهراتي في عقودِ تعلق في جِيد الحسناوات.

انتقلتُ مع العرب إلى الأندلس فنشرتُ عطري في دوربِ اشبيليةَ وقرطبةَ وغرناطة.

وصف الأطباءُ دهني للشقيقة والزكام ووجع المفاصل.

إذا قيلَ للألثغِ ما أغلى الدرَ قال ياثمين.

وَشَت حسناءُ خدَها بزهراتي فقال مفتي بيروت:

وشــت خــدهــا بــالــيــاســمــيــن تــزيــنــاً

فــأمــســكــه والــخــدُ والــلَــه عَــنــدمُ[1]

---

(١) العندم: خشب نبات يصبغ به، ويقال له أيضاً دم الأخوين أو البقم.

ومن عادةِ الكافور إمساكُه الدِما

وفي خَدِها الكافورُ أَمسكه الدمُ

وقال الشاعر أمين الجندي في قسمه:

قسماً بورد خدوده

وبياسمين زنوده

وبشغره وعقوده

ما مِلت يوماً للتخلي

وقال فيَ شاعر آخر:

أنا الياسمين الذي لطفت فنلتُ المنى

فريحي لمن قد نأى وعيني إلى من دنا

وقد دخلتُ مع الوردِ والسيسبان وزهرِ الحنة في الموال:

إن ألزم الأمر لابعت لك سلام مع مين

يلي غرامك طحن عظمي شمال ويمين

دقيت باب الجنينة عيط الياسمين

والسيسبان استحى والورد قال مين

والزهر حنه قال افتحوا للعاشق المسكين

ومن أحبني سمى إبنته ياسمينة.

آثار مغنايه

آثار مغناك

يا زهرة اللوز في بيروت لاقينا   قد كان ريحك في الأجواء يحيينا
وأبكي معي تلك الحدائق إنها   صارت صناديق من باطون تؤينا
لم يبق منك سوى ذكرى تؤاسينا
يا نخلة البرج في الساحات قد زرعت   يا عمة العرب والعمات قد هرعت
نحو الخلود ولم يبق لها أثر   غير التحسر والآذان قد صُرعت
كانت لبيروت جنات وقد نُزعت
يا فتنة الزهر يا صفراء نادينا   قبل الغروب وقد جفت سواقينا
لم تترك الأقدار زهراً في نوادينا   راح الجمال وراحت شجرة الكينا
جمّيزة شمخت في الصور تغوينا
يا شجرة الصبير في بيروت مأواها   بين الرمول وكم نهفو لذكراها
كان الرباع من الصبير لوحاتٍ   فيها الجمال وكان الرمل مرعاها
كم في الطبيعة سحر من مزاياها
أين الطبيعة يا بيروت رحماكِ   كيف ألتفت أرى آثار مغناك
مهما جرى فأنا ما زلت أهواك   ما زلت أؤمن أن الله يرعاك
مهما خسرتِ فإن العلم حلاك

أمين لادقي

الفهرس

الفهرس


هذا الكتاب
تصدى المؤلف فيه للأشجار والأزهار التي كانت تملأ بيروت، في الحدائق والمزارع والطرق والمنازل، فاستنطق ذاكراتها لتحكي كل منها حكايتها مع الزمن والناس، حتى جاء الكتاب كأنما هو تاريخ لتلك الأشجار والأزهار، وفيه من الطرافة مثلما فيه من العلم والتاريخ.
الحداثة - بيروت
ذاكرة النّاس - الجزائر
E-mail:abdullatif_fakhoury@hotmail.com